

العلاقة بين الحرمان الوالدي ومعايير النمو النفسي في مرحلة المهد (دراسة مقارنة) (1)

الباحثة: هويدة المعلاوي

h.malaaoui@hotmail.fr

طالبة باحثة في علم النفس

كلية علوم التربية - جامعة محمد الخامس - المملكة المغربية

الملخص:

هدف البحث الحالي إلى الكشف عن العلاقة بين الحرمان الوالدي و معايير النمو النفسي في مرحلة المهد من خلال المقارنة بين الأطفال العاديين المقيمين مع أسرهم و الأطفال المودعين بمؤسسات الرعاية و المحرومين والديا وذلك في معايير النمو النفسي خلال تلك المرحلة العمرية.

ولتحقيق أهداف البحث، تم استخدام المنهج الوصفي، مع استعمال مقياس معايير النمو النفسي. وقد طبقت الأداة على عينة مكونة من 60 رضيعاً ذكوراً و إناثاً : 30 منهم يعيشون في كنف أسرهم و30 موزعين على دور الرعاية بالمملكة المغربية وتتراوح أعمارهم بين ستة أشهر وسنة.

وقد تم التوصل إلى النتائج التالية: 1) وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي لدى عينة الأطفال العاديين و معاييرهم حسب المقياس المستخدم لصالح الأطفال العاديين. 2) عدم صحة الفرضية الثانية القائلة بوجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً ومعايير النمو حسب المقياس لصالح معايير النمو. 3) وجود فروق ذات دلالة إحصائية مرتفعة بين متوسطات درجات النمو النفسي لدى الأطفال المحرومين والدياً و الأطفال العاديين في مرحلة المهد لصالح الأطفال العاديين. 4) وجود علاقة ذات دلالة إحصائية مرتفعة بين أبعاد النمو النفسي عند عينة الأطفال ككل. 5) لا توجد فروق دالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي لدى الأطفال المحرومين والدياً والأطفال العاديين على مستوى الجنس.

Relationship between parental deprivation and the psychological development in the early stage & childhood (A comparative study)

Houida Maalaoui

PhD Student in psychology

University of Mohamed V - Faculty of Education Sciences – Morocco

Abstract

The aim of this study was to compare between the abandoned children in care institutions, and those who lived with their families in order to identify the effect of abandonment on psychological growth, during their presence in these institutions.

The study used the descriptive method and the measure of psychological growth criteria. The sample consisted of 60 babies (with both genders) between six months and one year, from the Kingdom of Morocco: 30 of them lived with their biological families, and 30 lived in the care institutions.

Results revealed that: 1) there were statistically significant differences, between the average of normal psychological growth rates children and those lived in deprivation for the favor of the ordinary children. 2) There were no statistically significant differences between the average of abandoned children psychological growth rates and the growth criteria for the favor of growth criteria. 3) There were statistically significant differences between the abandoned children psychological growth rates and the non-abandoned children for the favor of the non-abandoned children. 4) There were statistically significant relationships between the dimensions of psychological growth for all children. 5) There were no statistically significant gender differences between the psychological growth rates for all children and normal children.

(1) بحث منجز تحت إشراف الدكتور أحمد أوزي لنيل شهادة الماستر تخصص تربية وإدماج الشباب والأطفال في وضعية صعبة بكلية علوم التربية جامعة محمد الخامس.

- تم تسلّم البحث في فبراير 2018 وأجيز للنشر في يوليو 2018.

المقدمة:

أدركت الدول المتقدمة في وقت مبكر، أن أساس النهضة العلمية والعملية يكمن في استثمار ثرواتها البشرية، لهذا وجهت جل اهتماماتها إلى العنصر البشري، وعملت على تزويده بالوسائل والأدوات اللازمة لتحقيق التقدم؛ مع الإشارة إلى أن الاهتمام بالعنصر البشري لا يمكن أن يتحقق دون التركيز على بداية نشأة الطفل وتكوينه، باعتباره يمثل رأس مال المجتمع وثروته الحقيقية. وقد ساهم عصر المعلوماتية على تشجيع التنوع والتفرد، وعلى الإبداع والمبادرة، بالإضافة إلى التركيز على دور الأسرة في تحقيق حاجات الطفل الأساسية والأولية، وعلى الاهتمام بالظروف الملائمة والمحفزة للنمو في مختلف جوانبه العقلية واللغوية والاجتماعية والانفعالية، بما يعده بمستقبل جيد ويكسبه الخصائص اللازمة لمواجهة الحياة.

حظيت مرحلة الطفولة المبكرة باهتمام بالغ، على الصعيد الدولي والعلمي؛ حيث دعا برنامج الأمم المتحدة الإنمائي إلى الاهتمام بهذه المرحلة، ذلك أن « للسنوات الأولى من عمر الإنسان أهمية بالغة في تكوين الإمكانيات البشرية، ومن الضروري أن ينطلق صانعو القرار من الإدراك بأن المهارات هي التي تنتج المهارات، وأن الحياة الرغيدة تبنى على أسس قوية في سن مبكرة، وأن النواقص الكبيرة في المهارات تبدأ مع الطفل قبل ذهابه إلى المدرسة، (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2014). وقد أطلق على هذه الجهود المبذولة في هذا المجال بتربية أطفال مرحلة الطفولة المبكرة (ECE) Early Childhood Education وهي « كل ما يقدم للطفل من رعاية وتنشئة وتربية وتعليم وتنمية من لحظة الميلاد وإلى بلوغ سن الثامنة » (كرم الدين، 2006:12).

أما على الصعيد العلمي، فقد توافر في العقود الأربعة الأخيرة المزيد من المعطيات والأبحاث والدراسات، حول أبعاد النمو النفسي، وخاصة الجانب المعرفي والجانب التفاعلي والانفعالي عند الرضيع، وذلك منذ ما قبل الميلاد وبعده. وقد أسهم التقدم التقني والمنهجي الذي عرفته الساحة العلمية في السنوات الأخيرة، في تجديد نظرتنا نحو سلوك الطفل؛ وساهم في تقدم علم النفس الذي أصبح يبحث لنفسه عن إطار نظري جديد يستوعب هذه المعارف المتقدمة. إن البحوث الحالية تنظر للنمو نظرة شمولية، تحوي كل الجوانب لتتحد في نمو مشترك، كما أصبحت بحوث النمو حول السنوات الأولى من عمر الطفل تدمج المسألة القائلة بأن الطفل لا يستطيع النمو بدون مرافق وحاضن اجتماعي، يلبي احتياجاته ويكون له سندا في تقدمه ونموه داخل دينامية من التفاعل المتبادل.

إن الطفولة في واقع الأمر، هي المسار المفتوح لتحقيق أكثر ما يمكن من الطاقات والقدرات الإنسانية، وللوصول إلى صحة نفسية عالية الجودة. وكما يقول واطسون «تحت تأثير المحيط يكون الطفل محكوما بمرجعية سلوكية بيئية لا ترقى إلى قدراته الحقيقية. الطفل له القدرة أن يتعلم أكثر مما هو متعارف عليه، حينما يجد التشجيع اللازم والعناية المناسبة من محيطه» (Osterrieth Paul, 2004: 28)، يمكننا القول إن الاهتمام بالطفولة المبكرة والاستثمار فيها من شأنه أن يؤدي دوراً هاماً في الحد من دور حادث الولادة في تحديد نتائج الحياة. وأكثر الاستثمارات فائدة هي التي تركز على التربية والرعاية من الأهل، والترابط والتفاعل بين الآباء والأبناء... والطفل الذي يعيش حالة يسر مالي وخللا في التربية والرعاية، هو أكثر عرضة للحرمان من طفل يعيش ضائقة مالية في ظل رعاية جيدة وتوجيه من الأهل (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2014). وقد أظهرت الدراسات الفرنسية والأمريكية المعاصرة، الدور الحيوي للعلاقة المبكرة، وركزت على التفاعل المبكر وصولاً إلى دراسة الحياة الجنينية، وما يمكن أن تأتي به من تعلم للطفل في المستقبل (حجازي، 2013).

يمكننا من خلال دراسة وقياس النمو في الشهور المبكرة، الحصول على معلومات قيمة حول الظروف، التي يمكن أن تساهم في تنمية مختلف جوانب النمو النفسي للأطفال، والتحكم في المتغيرات المشكلة لها، أو المؤثرة في حدوثها. ومن شأن وضع معايير للنمو أن تؤدي إلى وضع أساس دقيق للنمو المعياري للطفل، ومقارنته بأقرانه من أطفال نفس المرحلة العمرية، وتحديد موقعه بينهم؛ كما تساعدنا على وقاية الطفل من كل نمو منحرف أو نقص في إشباع الحاجات الحيوية التي يفتقر إليها. ولقد فتحت نظرية التعلق - التي أتت بعد الحرب العالمية الثانية - آفاقاً هامة في مجال بناء الركائز الأولى للصحة النفسية، خلال عملية التفاعل المتبادل والانتقائي ما بين الطفل والأم أولاً، ثم بينه وبين الأقربين من أفراد أسرته. وهو ما يضع أسس الطمأنينة القاعدية بالسيطرة على واقعه، ذلك الإحساس الذي يطلق طاقات النماء لديه، وأن الرباط الإنساني بين الطفل وأمه يمثل دافعاً أولياً تماماً كالحاجة إلى الغذاء والنوم والحماية.

وهناك تراث غني من الدراسات والبحوث، يؤكد على أن حصول الطفل على حد أدنى من حب الوالدين أو من يعوضهما في المراحل المبكرة من عمره، هو أساس كل ما يستطيعه في المراحل التالية من عمره، من علاقات إنسانية حميمة. كما تبين أن الحرمان من الحب المبكر والارتباط العاطفي الحميم هو في حقيقة الأمر من أهم الأسباب التي تقف وراء معظم المشكلات السلوكية والاضطرابات النفسية التي تعاني منها المجتمعات المعاصرة (Lachausse, 2012). من هنا يأتي هذا البحث ليشمل المقارنة بين النمو النفسي عند الأطفال الذين يحظون برعاية الأسرة، والأطفال المحرومين والديا بقصد لفت الانتباه إلى حاجة الطفل في صغره إلى رحم اجتماعي يهتم به، لكي لا ينشأ وهو ضعيف عقلياً واجتماعياً ولغوياً وانفعالياً.

تشير الإحصائيات في المغرب، إلى وقوع حوالي 4554 حالة حرمان والدي سنة 2008؛ وهذا الرقم يمثل التقدير الأقل احتمالاً. والنسبة التي تبقى من هؤلاء الأطفال في مؤسسات الرعاية هي 37 % فقط. وقد قدرت الدراسة بأن نسبة التخلي الحقيقية في المغرب هي 1.3 % من مجموع الولادات في السنة ذاتها، وأن التوقعات تقول إن العدد في تزايد (UNICEF, 2010).

أهداف البحث

ينبع هذا البحث من انطباع قوي يكشف عن الفرق بين المعرفة العلمية الدقيقة، والمتفق حولها؛ وبين المعرفة العامة التي يتبناها الناس في مجتمع معين، حول موضوع مهم وحساس في نفس الوقت. ولقد أردنا من هذا البحث أن يساهم في تسليط الضوء على المسؤولية التي من المفترض أن نستشعرها تجاه هذا الكائن العاجز ظاهرياً، والذي قد تبهرنا قدراته الخفية إذا ما توافرت له الظروف الملائمة.

أهمية البحث

لا شك أن دراسة سيكولوجية النمو مهمة في حد ذاتها، ومفيدة كذلك لفهم كل مراحل الحياة، وفهم الشخصية عموماً، فالطفل «أبو الرجل» حسب تعبير فرويد Freud، لذلك فإن أهمية هذه الدراسة تتجلى في الأبعاد التالية:

- من الناحية النظرية تزيد من فهمنا لطبيعة الطفل ولعلاقته مع البيئة التي نشأ فيها.
- تزيد من قدرتنا على التحكم في العوامل المختلفة التي تؤثر على النمو، وضبط الظاهرة، بما يخدم مصلحة الطفل والمجتمع.
- تساعدنا على تحديد المرحل الحساسة، وهي المرحل التي كلما بكرنا في علاج وشفاء الحرمان الذي حدث خلالها، زادت قدرة الطفل على التأقلم مع البيئة التي يعيش فيها، ونعني بها مرحلة المهد (من الولادة إلى نهاية السنة الثانية من عمر الطفل).
- تبين لنا مدى تأثير البيئة والأشخاص المحيطين بالطفل في مرحلة المهد على كل بعد من أبعاد النمو وعلى النمو ككل.
- تمكننا من تقدير خطورة الانحراف الذي يأخذه مسار النمو عند الأطفال الذين يعيشون في دور الرعاية كما هي عليه الحالة الآن.
- يرفع من الوعي بأهمية هذه المرحلة وخطورة الاستخفاف ببراءة الرضيع الذي لم يكتسب بعد الوسائل الدفاعية اللازمة لكي يدافع بها عن نفسه.
- يساعدنا بالتنبؤ بمستقبل هؤلاء الأطفال موضوع الدراسة من خلال قياس مستوى نموهم.

الإطار النظري

النمو النفسي للطفل وأبعاده الأساسية

أولاً : مفهوم النمو النفسي ومبادئه الأساسية

ظهر علم نفس النمو في مطلع القرن العشرين، وقد عرف مفهومه عدة تغيرات وتطورات؛ بفعل اختلاف وتباين معظم المقاربات المؤسسة، التي جاء بها عدد من المنظرين على غرار سكينر، بياجيه، إريكسون، فرويد، فيكوتسكي... وتتسم المقاربات الحالية كذلك بالاختلاف، سواء من حيث السيرورات أو الجوانب المرضية، التي تتناولها ومن حيث المناهج. ويدرس علماء النفس النمو، الكيفية التي ينمو بها الإنسان من ناحية، ولماذا ينمو من ناحية أخرى، أي ما الذي يجعل السيرورات الذهنية والسلوكية والمهارات والكفاءات تتغير خلال حياة الفرد.

فالنمو هو «مجموعة من التغيرات المتتالية التي تسير حسب أسلوب ونظام مترابط ومتكامل، والتي تظهر في كل من الجانب التكويني والجانب الوظيفي للكائن الحي» (عبد الكريم، 2009: 14). وهو نتيجة التفاعل الدينامي والمتواصل بين الفرد ومحيطه. أي أن هذا التغير يعود إما للنضج أو للتعلم أو كليهما معاً.

ويقصد بالنضج التغيرات الداخلية في الكائن الحي، التي ترجع إلى تكوينه الفيزيولوجي والعضوي وخاصة الجهاز العصبي. أما التعلم فهو الخبرة والتدريب الذي يكتسبه الطفل من البيئة التي تحيط به. ولا يمكن التكلم عن اكتساب مهارة معينة إلا إذا كانت مرحلة النضج في الجهاز العصبي مهياً لذلك.

فالنمو بصفة أدق هو: «سيرورة دينامية متناسقة ومنظمة والتي لها وظيفة تكيفية» (Diane et al, 2009: 4).

مبادئ النمو النفسي

يعبر النمو عن عملية ديناميكية تفاعلية تتصف بإعادة الترتيب والتنظيم، إلا أنه يسير وفق مبادئ وقوانين محددة. فالنمو عملية مستمرة ومنتظمة، مبرمجة في عضوية الكائن الحي، ومدفوعة بالفطرة إلى الزيادة لبلوغ مرحلة النضج. تتضمن التغير الكمي والكيفي، فالطفل يزداد وزنه من الناحية الكمية، ويزداد جهازه العصبي

تعقيداً من الناحية الكيفية. كما أن سرعة النمو غير ثابتة، و«يبلغ النمو أقصى سرعته أثناء الحمل» (زين الدين الطفيلي، 1992:15)، ويبقى النمو على وتيرته المتسارعة نسبياً في مرحلة المهد. ولكل مظهر سرعته الخاصة « فالطفل في مرحلة الطفولة الوسطى، وإن كان نموه الطولي بطيئاً، يعرف نمواً غير ظاهر يتعلق بالخبرات والمعارف التي يكتسبها، والتي تؤدي إلى نضجه العقلي» (أوزي، 2013).

والنمو وحدة متكاملة لا يمكن تجزئته، غير أننا نضطر لذلك من أجل الدراسة والفهم، والعلاقة بين متغيراته، علاقة ديناميكية تتميز بالتعقيد والتناسق في نفس الوقت. وهو يسير وفق نمط محدد حيث يتخذ النمو في تطوره العضوي والوظيفي اتجاهاً طويلاً من الرأس إلى القدمين، ومستعرضاً من الجذع نحو الأطراف، وذلك من الناحية الوظيفية والعضوية كذلك (رضوان، 2009). علاوة على الفروق الفردية التي يجب أن تأخذ بعين الاعتبار، فكل فرد ينمو في إطار هذه الخصائص العامة وفقاً لقياساته الخاصة.

ويتأثر النمو بالظروف الداخلية والخارجية، وهي متفاعلة ومتداخلة فيما بينها. ومن الظروف الداخلية المؤثرة في النمو الوراثة وإفرازات الغدد « فالعوامل الوراثية تقوم بتحديد خصائص الكائن الإنساني البنائية والنوعية، بحيث يشارك أفراد نوعه في جملة من الخصائص، ويتميز عنهم في الوقت نفسه بخصائص أخرى. وتقوم الوراثة بتحديد المدى الذي يمكن أن تصل إليه هذه الخصائص دون أن تتجاوزه رغم تدخل البيئة لتنميتها» (أوزي، 2013:70). وتمثل البيئة كل العوامل الخارجية التي تؤثر على نمو الفرد منذ لحظة الإخصاب، فهي تساهم في تشكيل شخصية الفرد وفي سلوكه وأساليب مواجهته للحياة، وتوفر الأم أول فرصة للتعرض للوجوه البشرية أو الاتصال بالآخر (قنطار، 1992).

نظريات النمو النفسي

منذ أن وضعت الأسس العلمية الأولى لعلم نفس النمو عند الطفل، مع بداية القرن العشرين، اهتم العلماء بأربعة مناح رئيسية: المنحى السلوكي الذي أغلق منافذه على كل ما هو داخلي في النمو، ولم يربط التعلم (النمو) بالمراحل، فالطفل نتاج بيئته. والمنحى الوصفي المعياري، الذي يؤكد على أن النمو يأتي من الداخل كما يعتقد «جيزل». أما المنحى الثالث فهو منحى التحليل النفسي الذي ساهم بإدخال المراحل النفسية-الجنسية إلى النمو. أما المنحى الرابع فهو منحى نظرية المجال الذي ينظر للنمو في علاقته مع العوامل البيئية. وقد أتت النظريات المعرفية - والتي سنخصصها بالبحث- في منحى متقدم، لتتميز بما ظلت تقدمه من معارف دقيقة لعلم نفس النمو، وذلك انطلاقاً من النظرية البنائية لصاحبها «بياجيه»، وصولاً إلى ما وصلت إليه السيكلوجيا العصبية الحديثة.

نظرية «بياجيه» (1896-1980)

تتمحور تساؤلات «بياجيه» حول الكيفية التي تنمو بها المعارف عند الفرد. وقد استعمل خلال بحثه ما سماه ب«المنهج الكلينيكي»، حيث كان يلاحظ نمط التفكير وطريقة الاشتغال الذهني عند بعض الأطفال في وضعية إشكالية. وقد استعار المفاهيم الأساسية لوصف الذكاء من المجال البيولوجي.

ونمو الذكاء عند «بياجيه» هو سرورية البحث المتتالية عن التوازن. وتمثل مراحل النمو عند «بياجيه» لحظات من مستويات التوازن. كما يعرف الذكاء بأنه: التكيف مع الوضعيات الجديدة (Tourette & Guidetti, 2014).

مراحل النمو عند «بياجيه»: المرحلة الحسية-حركية (الولادة - سنتين):

تتميز هذه المرحلة بالبناء التدريجي للشيمات «les schèmes» الحسية-الحركية، أي الشيمات المسؤولة عن كل الأنشطة التي تستعمل الإدراك والحركة. والذكاء الحسي-الحركي هو القدرة على حل المشاكل العملية عن طريق أنشطة حسية-حركية وقبل ظهور اللغة. وهذه المرحلة من الذكاء هي مرحلة أساسية، حيث يتم خلالها تطوير البنات التحتية المعرفية التي تمثل الأساس لبناء المعرفة في المستقبل. وتحتوي هذه المرحلة على ست مراحل فرعية وهي:

1. تمارين الأفعال الانعكاسية (0 - شهر):

مفهوم الانعكاس عند «بياجيه» هو إجابة كلية أولى للفرد على مثير من الوسط الخارجي، فله إذاً وظيفة تكيفية. وتمثل الإجابات الأولى الانعكاسية مصدرراً للشيمات. فعملية المص هي انعكاس يبدأ صعباً، ولكن سرعان ما يتطور لكي يصبح مهارة، إذ عن طريق التمارين تقع عملية الاستيعاب «Assimilation» التي ستغني الشيمات عند الطفل. وتأخذ عملية الاستيعاب عدة أشكال: الاستيعاب الوظيفي أو التوليدي والذي يمثل الحاجة لإعادة القيام بنفس الفعل لكي يقع دعمه. وهناك الاستيعاب المعمم وهو تطبيق هذا الفعل الانعكاسي على مواضيع مختلفة (مص الإصبع)، وهكذا فهو يوسع من الشيمات الانعكاسية. ثم يأتي بعد ذلك الاستيعاب التمييزي، وذلك عندما يتمكن الطفل من التمييز بين الأشياء التي أدرجت داخل الشيمات (يميز بين الثدي والإصبع). وأخيراً هناك الاستيعاب المتبادل للشيمات، ويأتي متأخراً عند التنسيق بين القبض والرؤية.

2. التكييفات الأولى والأفعال الدائرية البدائية (شهر - 4 أشهر)

بفضل توسع الشيمات الاستيعابية، يتمكن الطفل من اكتساب سلوكيات جديدة تعبر عن استدخال عناصر جديدة في الشيمات الأولية. فالأفعال الدائرية البدائية، والتي تمثل إعادة نشطة لفعل عرضي يتولد عنها نتائج عرضية مهمة بالنسبة للطفل فيكررها (مواعمة «Accommodation») من أجل الحصول على نفس المتعة. ولكن على صعيد هذه المرحلة يبقى النشاط الاستيعابي هو النشاط الغالب.

3. التناسق بين الرؤية والقبض والأفعال الدائرية الثانوية (4 أشهر - 8،9 أشهر)

تتميز هذه المرحلة بظهور نية القصد التي سنكتشفها من خلال عملية القبض، فالطفل سيمسك الأشياء بإرادته بفضل التناسق بين الرؤية والقبض. ويصبح له القدرة على الربط بين الهدف والوسيلة التي تمكنه من الوصول إليها. وستنطبق الأفعال الدائرية على الأشياء (يتحرك عشوائياً فيسمع صوت الجرس المعلق فيعيد الحركات العشوائية لكي يسمع الصوت الذي حقق له متعة: نتكلم هنا عن تصرف موائم، فالطفل يحاول أن ينسق بين الهدف والوسيلة التي تمكنه من الوصول إليه. خلال الأفعال الدائرية الثانوية التي ستمكنه من التعرف على خصائص الأشياء سينتقل الطفل إلى تطبيق الشيمات التي اكتسبها على الأشياء الجديدة (ضربها، دفعها، حملها إلى فمه...) ومن هنا تتكون القاعدة للتصرفات المستقبلية للتصنيف.

4. تناسق الشيمات الثانوية وتطبيقاتها على وضعيات جديدة (8،9 أشهر - 11،12 شهر)

الطفل هنا يدمج الشيمات لكي يحصل على نتيجة معينة، التناسق هو بداية الأعمال الذكية عند الطفل. وهذا التناسق في الشيمات تحقق بفعل حركتها: ينسق بين شيمة الهدف وشيمة الوسيلة، وهذا يدل على النظرة المسبقة للنتيجة المنتظرة. فسيستعمل نفس الأسلوب لنتائج مختلفة أو وسائل مختلفة لنفس الهدف، فيكثر في التحركات الاستكشافية ويظهر عنده ما يسميه «بياجيه» بالأفعال الدائرية الثانوية المشتقة وينتقل من الاهتمام بالفعل إلى الاهتمام بالنتائج. نرى هنا أن الوعي بالسببية قد تطور، الأشياء بدأت تتصف بالاستمرارية. في المرحلة السابقة الشيء عندما يختفي فكأنه ينعدم أما في هذه المرحلة فالطفل يظهر الاستعداد للبحث عنه. في هذه المرحلة يبقى الاستيعاب هو المهيمن ولكنه يولد مواعمة أكثر.

5. فصل الشيمات بالأفعال الدائرية الثالثة واكتشاف وسائل جديدة عبر التجربة الحية (11،12 شهراً - 18 شهراً)

لم يعد الطفل يكتفي بالبحث عن نتيجة واحدة، بل أصبح يبحث عن تعدد النتائج، أصبح يمارس التجارب لـ «يرى»، وهذا ما يمثل الأفعال الدائرية الثالثة. وباستعمال أسلوب التجربة نشهد زيادة وتعقد التناسق عبر اكتشاف وسائل جديدة، فالطفل يجذب غطاء الطاولة لكي يصل إلى لعبته. إذ التصرف الجديد في هذه اللحظة هو: المواعمة النشطة للشيمات تؤدي إلى استيعابات جديدة.

6. اختراع وسائل جديدة عبر التركيب الذهني (18 شهر - 24 شهر)

الإضافات الجديدة هنا هي الصور الذهنية، نلاحظ وجود بداية للصور الذهنية التي ستمكنه من الوصول إلى «دوام الشيء». في نهاية هذه المرحلة يصبح المحيط مكون من أشياء مستمرة عبر الوقت مرتبطة ببعضها بعلاقة سببية خارجة عن نطاق الطفل، وموجودة في زمان ومكان موضوعيين (Tourette & Guidetti, 2014). وهناك مراحل متبقية لا تخصصنا في البحث.

خلاصة لما عقب «بياجيه» من أبحاث:

نلاحظ بأن هناك العديد من العلماء الذين انبهروا بنظرية «بياجيه» فدرسوها، وبنوا عليها إضافات جديدة مستخدمين في ذلك ما طوره العلم من تقنيات جديدة مثل تقنية:

التعود/التفاعل مع الجديد (habituation/réaction à la nouveauté)، وهي تركز على الرضاة المرتبطة بالحاسوب. أو التصوير الدماغي (IRMf-TED) الذي يستعمل في علم النفس العصبي. «فالباحثون منذ هذه المدة أكدوا وجود قدرات مبكرة لدى الطفل الرضيع، مثلما توجد لديه إستراتيجيات ذهنية مختلفة، ثم جاء اكتشاف الصور الذهنية للدماغ لتقوية هذه المقاربات الجديدة» (وليفي، 2008: 154). حيث يرى Lécuyer أن الإدراك هو في حد ذاته يمثل معالجة حتى وإن كانت جزئية. فلا يمكن الحديث عن ذكاء حسي حركي دون الحديث عن إشكالات ذهنية عند الرضيع. كما أثبت Rovee و Collier أن الرضيع خلال تفاعلاته مع المحيط له قدرة جيدة على تذكر الأحداث التي يمر بها. ومن خلال اكتشاف المحاكات والتقليد عند الرضيع لحركات الكبار في الأسابيع الأولى بعد الولادة يؤكد كل من Bower و Gibson على عدم وجود فضاءات حسية فالمعلومة تعالج وتخزن بطريقة مجردة (Tourette & Guidetti, 2014).

كان «بياجيه» يعتقد بأن التطور المعرفي يتم على شكل نموذج السلم الصاعد أو المراحل المتلاحقة التي تؤدي

إلى عملية تبلور تراكمية، إلا أن المعطيات المعاصرة أثبتت أن هذا النموذج ليس هو النموذج الصحيح، أو على الأقل ليس الوحيد، لأن هذا التطور يمر بثغرات عديدة، وبكثير من التواء المدارك (وليفي، 2009).

يفسر «شانجو» «Changeux» بالتعاون مع الباحثين «فيليب كوريجن» و«انطوان دانتشان» أن قابلية التوصيل بين الخلايا العصبية لها إمكانيات تطور هائلة. هذا يدل على أن نشوء التوصيلات بين الخلايا العصبية خلال سيرورة التطور لا يتم بشكل جامد، ولكن يتم من خلال الضرورة الحياتية والتجربة والخطأ. وقد مكنتنا التقنيات الجديدة خلال العقود الأخيرة من نقض مقولة أن كل الخلايا العصبية توجد منذ ولادة الطفل، ونمو الدماغ لا يتم إلا عبر الترابطات les synapses، فقد بحثت «إليزابيث غولد» و«Elizaeth Gould» من جامعة برينستون في هذه المسألة، وبرهننت على وجود آلية لتشكيل الخلايا العصبية في القشرة الدماغية الجبهوية لدى الإنسان البالغ. وقد بدأت النظرية المعاصرة: الداروينية العصبية المعرفية التي يدافع عليها كل من «شانجو» من فرنسا و«جيرالد روكفلر» من الولايات المتحدة تبحث في العلاقة التفاعلية بين الجهاز العصبي للإنسان والعالم الخارجي، من خلال نموه من بعد الولادة انطلاقاً من الرضيع إلى الشخص البالغ، وخاصة في اكتساب الوظائف المعرفية العليا (وليفي، 2009).

ثالثاً: مرحلة المهد وخصائصها النمائية

يعطي علم نفس النمو مساحة كبيرة من الاهتمام بالطفولة المبكرة وخاصة مرحلة المهد، فهي تعتبر مرحلة الحياة، المرحلة التي تتم فيها التغيرات المهمة وتكتسب فيها مهارات عديدة. ومرحلة المهد هي المرحلة التي تمتد من لحظة الولادة إلى نهاية السنة الثانية، وهو مشتق من المهد، وهو المكان الذي يقضي فيه الوليد معظم وقته (أوزي، 2013).

1. أهمية المرحلة

تتمكّن أهمية هذه المرحلة في كون الطفل يكتسب خلالها كل الموصفات والخصائص الإنسانية، والتي بدونها تجعل منه عند الولادة كائنًا عاجزاً وناقصاً أمام الراشد مقارنة بالثدييات العليا. وإن المهتمين بالتربية وعلم النفس والباحثين في مختلف الدراسات البيولوجية الإنسانية، يجمعون على أن السنوات الأولى في حياة الإنسان تعد مرحلة من أهم مراحل العمر. ذلك أن نحو 60% من ذكاء الطفل يتبلور خلال السنوات الأربع الأولى من حياته، وفيما تتم عمليات نمو المخ الإنساني وبناء الجهاز العصبي والتفكير واللغة، وتتشكل نواة الشخصية من خلال التفاعل بين ما يولد الطفل مزوداً به من قدرات واستعدادات، وبين ما يتعرض له من خبرات معرفية وأساليب تربوية وعلاقات إنسانية» (التويجري، 2006: 2). في نهاية هذه المرحلة يصبح الرضيع اجتماعياً ومتعاوناً وله قدرة خاصة على اللغة وعلى الحركات الدقيقة، والتي لا يتقاسمها مع أي فصيل حيواني. كما يتعلم مفاهيم أساسية مثل الفضاء والسببية والعد، كل هذا يتعلمه خلال هذه المرحلة الوجيزة انطلاقاً من بداية شبه معدومة القدرات. وإذا كانت هي المرحلة النشطة في النمو، فهي كذلك حسب ما يقوله العديد من المنظرين المرحلة الأكثر حساسية. فتجارب سوء المعاملة التي يعيشها الطفل خلال هذه المرحلة يمكن أن تكون لها عواقب مضرّة ونهائية على كل مراحل النمو اللاحقة.

وقد أكدت نظريات النمو على هذه العلاقة وخاصة مع الأم. وقد بين «باولبي» ومن بعده «سبيتز» أن الحب الذي تمنحه الأم لطفلها في السنوات المبكرة، وخلال الطفولة كلها، لا يقل أهمية في مجال صحة الطفل عن الفيتامينات والبروتينات بالنسبة للصحة الجسمية. فتتمية الطفل لاتجاهات بناءة أو هدامة، نحوه أولاً، ونحو غيره من الناس فيما بعد، يعتمد قبل كل شيء على نوع الاتجاهات التي يكونها أبواه نحوه.

وقد انطلقت سلسلة هامة من الدراسات والأبحاث في مراكز وطنية وعدد كبير من الجامعات في فرنسا وإنجلترا وأمريكا تدرس علاقة السنوات الأولى كنقطة انطلاق، ودراسة التفاعل بعد الميلاد مباشرة. كما درست التفاعل بالتعلم في المرحلة الجنينية. وقد اتضح مدى تأثيرها على صحة الطفل النفسية اللاحقة (حجازي، 2013).

إذا نلاحظ أن هذا المجال يتصف بصفتين متناقضتين: الأولى أنها غنية ومغرية للباحثين، والثانية أنها صعبة الولوج. وهناك من يشبهها بالوجه المظلم للعمر، يصعب أن نجد الوسائل لنرى ماذا يجري في ذهن الرضيع حيث إن أغلب البحوث تنبني على الكلام. فالملاحظة أعطتنا وصفاً للنمو الحركي بالأساس مع العمر الذي يقومون فيه ببعض الحركات، ولكن ماذا عما يرى أو يسمع أو يفكر وهو مازال لم يتحرك بعد؟ (Bower, 1997).

2. أبعاد النمو في مرحلة المهد:

اتفق أساتذة علم نفس الطفل والتربية ومختلف الروابط والجمعيات العلمية المتخصصة «أن هناك سبعة مجالات للنمو يلزم التعرف عليها وتحديدها، ويفضل قياس مستوى معدل نمو الأطفال فيها خلال مرحلة الطفولة المبكرة، لأن أي تأخر في مجالين من هذه المجالات يجعل الطفل «معرضاً للإعاقة AtRisk or High Risk»، بما يستلزم تقديم البرامج التعويضية الملائمة له. والمجالات السبعة المقصودة والتي اتفقت عليها كافة الفئات والهيئات والروابط السابق تحديدها هي المجالات التالية: النمو البدني- النمو اللغوي- النمو المعرفي والعقلي- النمو الاجتماعي- مساعدة الذات- النمو الانفعالي- نمو الشخصية» (كرم الدين، 2006: 15) وستتناولها كالاتي:

النمو الجسمي الحركي

يولد الطفل ولديه حركات انعكاسية لا إرادية، مثل انعكاس مورو والمشى والمص. كل هذه الحركات تختفي مع الشهر الرابع تقريباً. فالحركة هي وسيلة الطفل الأولى للتعبير عن حياته النفسية، كما أنها مؤشر هام للدلالة على العديد من مظاهر النمو ومستوياته على الصعيد الجسمي والعقلي والوجداني والاجتماعي أيضاً. ومن المعلوم أن حركات الطفل تكون في البداية عشوائية، ثم تنتظم وتتوازن بنموه وتطوره.

ويعتبر النمو الجسمي مدخلاً أساسياً لفهم هذه المرحلة من النمو. ويعد «جيزل» من أهم علماء النفس الذين أولوا اهتماماً علمياً دقيقاً للنمو الحسي الحركي للطفل منذ ولادته. ونورد في الجدول التالي بعض ملاحظاته عن النمو الحسي الحركي، خلال السنة الأولى من الحياة، بقصد الاسترشاد بها في دراسة النمو.

جدول رقم (1) يبين النمو الحسي الحركي للرضيع خلال السنة الأولى (أوزي، 2013، 100).

السن	النشاط الحسي الحركي
الشهر الأول	بوسع المولود أن يحرك رقبته يميناً ويساراً، وأن ينظر إلى ما حوله بشكل غير مركز، كما أنه بمقدوره تتبع نور الضوء الصادر من النافذة.
الشهر الثاني	يحرك المولود رأسه بشكل دائري لمتابعة شخص يتحرك أمامه. يستطيع رفع جذعه في حركة انحنائية.
الشهر الثالث	يحدق مدة أطول في شيء أو في شخص أمامه. يمسك بشيء ما في يده وينظر إليه.
الشهر الرابع	بوسعه الجلوس لفترة وجيزة إذا استند إلى شيء.
الشهر الخامس	يمسك الأشياء التي يلمسها بيده.
الشهر السادس	يتقدم ليمسك بلعبته إذا سقطت.
الشهر السابع	تثير انتباهه بعض الأشياء الجديدة في وسطه. يعتدل ليجلس، يتحرك بنشاط.
الشهر الثامن	يستطيع الوقوف على قدميه إذا ساعده أحد. يختبر الأشياء. يغمض عينيه إذا اقترب منه شيء بمسافة قريبة.
الشهر التاسع	يستطيع الوقوف بمفرده إذا استند إلى شيء.
الشهر العاشر	يتفحص اللعبة ويختبر أجزائها. يتعلم المشي على أربع.
الشهر الحادي عشر	يستدير ليقف.
الشهر الثاني عشر	يستطيع الوقوف بمفرده لفترة وجيزة. بوسعه وضع اللعبة في علبتها وإخراجها.

النمو المعرفي

يقول «لكيار» (2004) Lécuyer إن الوصف المفصل لمهارات الرضيع قبل أو منذ ولادته أو خلال الأسابيع الأولى من حياته أدى إلى تكوين صورة لطفل ذي مهارات متفوقة، ويمتلك قدرات نشطة حول تنمية ذكائه الخاص (Tourette & Guidetti, 2014:50).

وتعتبر الحواس بوابة المعرفة عبر الإدراك الذي يعطي دلالة ومعنى للمثيرات الحسية التي يستقبلها، وتنمو الوظائف الحسية بشكل سريع في مرحلة المهد. الأمر الذي يجعل الطفل يعطي معنى لمدرجات محيطه. ففي السنوات الأولى تبدأ هندسة الوظائف القاعدية للدماغ تأخذ شكلها الأولي، وبالتالي سيكون لها تأثير حاسم على المراحل اللاحقة (Mustard, 2010).

وكما يؤكد كل من «Flavel» و«Miller» (2002) ما أثبتته البحوث المعاصرة من أن النشاط المعرفي للرضيع هو نشاط متفوق جداً، عكس ما كان يعتقد «بياجيه»، حيث يفوق النشاط المعرفي للأطفال الذين يكبرونه سناً (Diane, s.d: 10). كما أن العلوم العصبية تقول بأن الحجم المضاعف للدماغ خلال السنتين الأوليين من الحياة يدل على توسع التشابكات العصبية بعد الولادة (عند الولادة تكون بعد 2500 وبعد انتهاء السنة الثانية تصبح 15000). فالرضيع أصبح ينظر إليه كشريك فاعل مزود بمهارات فطرية بدائية ولكنها تمكنه من أن يكون فاعلاً في محيطه (Diane, s.d).

النمو الاجتماعي الانفعالي

يصعب الفصل بين مظاهر نمو الطفل، حيث ينمو الرضيع في وضعية اجتماعية يكون فيها هو الفاعل الأساسي. خلال الأسابيع الأولى، وانطلاقاً من الشهر الثاني يبدأ الرضيع بإعطاء أهمية للمحيط ويبدو منبهراً بالوجوه من حوله. وإذا رجعنا إلى التجارب التي قام بها «سبيترز» مثلاً عند الشهر الثالث مثلاً نجد أن النظر إلى وجه الطفل يثير الابتسامة عنده، ومن هنا تنشأ العلاقة فالرد عليها شيء تلقائي ومحجب عند الكبار. وهذه الرابطة الاجتماعية تمهد للتبادل الانفعالي والاجتماعي التي ستعقب هذه المرحلة. وتمثل الأم محوراً للأمن عند

الطفل الذي يجب أن ينمو في جو عاطفي مريح وهو شرط أساسي لكل تقدم في المستقبل. ولا يمكن للطفل أن ينطلق إلا إذا كانت له علاقة تعلق آمنة.

ويمكن القول إن الانفعالات الطفولية تحتل كل الحياة النفسية. في البداية تغلب الانفعالات السلبية، وتظهر عبر البكاء والإحساس بالاستياء في الشهر الثالث من خلال تعابير الوجه. وفي الشهر الخامس يظهر الحزن، ونفرت عند الطفل بين الخوف والقلق، وبين الغضب والعدوانية ويظهر الإحساس بالغيرة في نهاية السنة الأولى. القلق يظهر مع الوجوه الغريبة أو فقدان الإيقاع اليومي لحياته العادية. أما الخوف فيظهر عبر الإشارات. بالنسبة للانفعالات الإيجابية، يظهر حسب «Bridges» الإحساس بالمتعة في نهاية الشهر الثاني كأنفعال متميز بالابتسامة وإصدار بعض الأصوات. في الشهر الثامن تظهر فرحته بنفسه وافتخاره بنجاح أنشطته كما يلاحظها «Janet» متعته أن يكون «سبباً». وخلال نفس الشهر يعبر الطفل عن عاطفته مع الأم التي يلاحظ عاطفتها تجاهه. المحاكاة هنا تلعب دوراً مهماً: يتعلم الطفل كيف يحب عندما يشعر أنه محبوب. وأن له قيمة في محيطه. وهذا ما سيحدد له مستقبلاً موقفه تجاه نفسه أي أن يكون صالحاً أو غير صالح. ويمثل عنصراً أساسياً للإحساس بالأمن والثقة (Osterrieth, 2004).

النمو اللغوي

يتولد استيعاب اللغة من خلال سيرورات التواصل بين الطفل وبين محيطه. و«يرى «شومسكي» Chomsky أن الوليد البشري يولد مزوداً بجميع الاستعدادات اللغوية، وبكفيه أن يعيش في وسط اجتماعي يتحدث لغة معينة، ليحول هذا الاستعداد وهذه المقدرة الفطرية إلى لغة معينة، كما أن للطفل البشري جهازاً لغوياً على غرار بقية الأجهزة الأخرى» (أوزي، 2013). أما «برينر» Bruner 1983 فهو يركز على السياق الاجتماعي-التواصلية الذي تستعمل فيه هذه اللغة: لم نعد نركز فقط على ما يقوله الطفل، ولكن لمن؟ وكيف؟ ولماذا يتكلم؟. يعبر الطفل عن نفسه في لحظة الولادة بلغة الصراخ التي تدل عن الحياة والصحة، ثم يأخذ البكاء منحى بدأياً انفعالياً له قيمة تعبيرية. لغة يعبر بها عن رغباته، ويتخذها وسيلة لاستدعاء الأم التي تجلب الراحة والهدوء. وفي نهاية الشهر الثاني يبدأ الطفل بإصدار بعض الأصوات التي تصدر بشكل تلقائي وتكاد تأخذ شكلاً واحداً لدى جميع الأطفال مهما كانت لغتهم وبيئتهم الاجتماعية. ثم يبدأ في تغييرها والتحكم فيها، ومثلما يلعب بيده فهو يلعب بصوته. وهي المرحلة التي يسميها «Pichon» مرحلة المناغاة (stade de gazouillis). يصدر خلالها الطفل مجموعة من الأصوات التي ليس لها علاقة باللغة المنطوقة في المحيط. وابتداء من الشهر الخامس تصدر عن الوليد أصوات لحروف علة، وهكذا يتعلم الطفل تقليد بعض الأصوات التي يسمعها فيخرج بذلك من مرجعه الخاص إلى استيعاب النماذج الخارجة عنه، مثل «بابا»، «ماما». وفي نهاية السنة تبدأ الكلمة في أخذ معناها المعتاد عند الطفل (Osterrieth, 2004). وتلعب علاقة الطفل بأمه دوراً هاماً في نموه اللغوي، فبقدر ما تتأخر علاقة الطفل بأمه ويكتسب نحوها اتجاهها عاطفياً إيجابياً، وكل نقص عاطفي في تعامل الأم مع رضيعها يؤدي إلى التأخر في ظهور اللغة (أوزي، 2013).

لقد أشرنا في عدة مواضع إلى أهمية علاقة الأم أو من يقوم مقامها. وسننتقل إلى الفصل الموالي لنتناول الموضوع بأكثر تفصيلاً.

رابعاً: الأطفال المحرومون والديا وحاجاتهم

الحرمان الوالدي قد يكون تخلياً بمعنى: «تركه لإحسان الآخر» (Vinay, 2006). ويتضمن الحرمان معنيين: الفراق والقطع، والفراق يبقى شيئاً عادياً وضرورياً للنمو عند كل فرد. وكلمة القطع تحمل المعنى بدرجة «النهائي». الولادة والقطع والدخول إلى المدرسة؛ هي كلها لحظات فراق لدعم الاستقلالية والإحساس بالتفرد. القلق والألم موجودان عند الفراق ولكن عندما نعلم بأن الرجوع ممكن، وعندما نكون مهيين إليه فالألم ينقص ويتلاشى. القطع في المقابل يولد إحساساً عميقاً بالضيق، لأنه قطع للروابط، والطفل يحتاج لبناء هويته للروابط الاجتماعية التي تضمن له الأمن والاستقرار، وتعطيه الإحساس باستمرارية وجوده، والإحساس بالأمن الداخلي. هذه الروابط تمكنه من أن يتموضع داخل تاريخه الشخصي، يضمن له الانتماء. الطفل المتخلى عنه يجد الفراغ، ابن لأحد. التخلي هو وعد الطفل بالموت، نسبة الوفاة مخيفة: في القرن الثامن عشر في «روان» Rouen وصلت إلى 95%، وفي فرنسا وصلت إلى 84% (Vidailhet, s.d.).

و نحن خلال هذا البحث سندرس الحرمان خلال مرحلة المهد، حيث تمثل علاقة الأم برضيعها أهم رابط اجتماعي، الذي يعطيه الصورة الأولى لكل الروابط المقبلة في حياته (Dora, 2002).

1. الحرمان العاطفي

نمو الطفل هو نتيجة للتفاعل بين الطفل ومحيطه. غير أن هذه الفكرة البسيطة ظاهرياً تغطي حقيقة معقدة ومتغيرة. وكما تبين لنا في الفصول السابقة فالطفل منذ الميلاد مزود بأليات عصبية دماغية للتفاعل وإقامة العلاقة مع الأم، ولقد توفرت في العقود الأربعة الأخيرة كمية كبيرة وكاشفة من المعطيات والأبحاث والدراسات حول مرحلة البدايات هذه، وكيف توضع فيها أسس الصحة والمرض.

والحرمان العاطفي الكلي كما يعرفه مصطفى حجازي هو: «فقدان الطفل لأية علاقة بالألم أو من يحل محلها، وذلك منذ الشهور الأولى للحياة والنشأة في مؤسسات رعاية الأطفال المحرومين كرجال حيوي وتجربة إنسانية» (بن زديرة، 2006: 13). وقد كانت تتخذ أشكالاً بالغة الخطورة في نظم الرعاية القديمة، حيث كان يعهد برعاية الأطفال إلى مربيّات موظفات يعملن بدوام رسمي، ويتغيبن عن نفس المجموعة من الأطفال خارج أوقات الدوام وفي العطل. ويعهد لكل مربية بعدد كبير من الأطفال لا يتيح لها سوى القيام بمهام العناية بالتغذية والنظافة بدون توافر فرص التفاعل الكافي. وكانوا يتركون في أسرّتهم ذات الجوانب العالية التي تمنعهم من الحركة. فهم يتميزون بتأخر عام في النمو، وعلى جميع الأصعدة الجسميّة والحركيّة واللغويّة والذهنيّة والانفعاليّة، رغم التغذية الجيدة والعناية الصحيّة. وهناك تدن لدرجة المناعة ضد الأمراض، ويظل هؤلاء الأطفال في حالة اللامبالاة تجاه مبادرات الراشد الغريب. فلا هم يتفردن أو يخافون منه ولا هم يتجاوبون معه. كما أنهم لا يباليون لمن يحملهم أو يتركهم.

نحن هنا أمام إعاقة الآلية العصبية - الفطرية بسبب عدم التجاوب والإثارة من قبل الراشد، وفي غياب العلاقة الوثيقة الدائمة الحامية والرعاية والمطمئنة. لقد حرم هؤلاء فرصة إقامة رباط إنساني نوعي انتقائي متين وثابت مع شخص راشد مرجعي، مما أعاق نموهم. وإذا استمروا على هذه الحالة فإن نموهم يتعرض لتعثر جدي قد لا يمكن تعويضه لاحقاً على كل الأصعدة وخاصة العاطفية والاجتماعية. فهم يتعرضون لما يسمى «المؤسسة»، أي التكيف شبه المرضي لعالم المؤسسة الضيق ونظام حياة القطيعة. لا تتكون لديهم الهوية الذاتية المتميزة والتممايزة. ولا يصلون إلى درجة كافية من الاستقلالية الذاتية. أما نموهم العاطفي فيتصف بالطفولية أو ما يسمى بـ «النشاح العاطفي»، وتتضح آثار هذا الحرمان على صعيد النمو العاطفي-الجنسي، ويتجلى ذلك خصوصاً عند الفتيات اللواتي يتم تزويجهن بترتيب من المؤسسة، فهي تظل قاصرة عاطفياً وشخصياً عن تحمل المسؤولية. هناك خلل تكويني أساسي في حياتهم راجع إلى الحرمان من العلاقة الوثيقة التي تسمح لهم ببناء كيانهم النفسي. هذا الخلل القاعدي لن يوفر الطمأنينة والثقة القاعدية بالذات والمحيط التي لا تقوم إلا على الرباط الأولي المتين. ولقد أجريت العديد من التجارب على صغار القردة التي فصلت عن أمهاتها وعن بني جنسها منذ الميلاد، وقد أدى ذلك إلى العجز عن القيام بأدوارها الاجتماعية والجنسية حين كبرت، مثل رفض الزواج ورفض تقبل دور الأمومة ورفض الصغار حين تم تلقيحها اصطناعياً، ناهيك عن نسبة الوفيات المرتفعة في بداية الحياة (حجازي، 2013).

وتبين هذه المعطيات جميعاً مقدار أهمية وألوية العلاقة الوثيقة مع الأم في إرساء أسس الصحة النفسية التي تقوم على الطمأنينة القاعدية.

2. نظرية التعلق عند «بولبي» Bowlby

هذه النظرية قدمها «جون بولبي» وساعدت في تطويرها «ماري إينسورث». وتتمثل أطروحتها الأساسية في أن الرباط الإنساني بين الطفل وأمه، ثم بينه وبين أفراد أسرته الأقربين يمثل دافعاً أولياً تماماً كالحاجة إلى الغذاء والنوم والحماية، وليس دافعاً ثانوياً ينشأ انطلاقاً من تلك الحاجات الأولية. وتذهب هذه النظرية إلى القول أيضاً أن نوعية العلاقة الأولية مع الأم، ومنذ الشهور الأولى هي التي تحدد نموه المعاني أو تعيقه. وقد فتحت هذه النظرية الباب أمام مئات من الدراسات التي طوّرت وعمقت، وصولاً إلى الحديث الراهن عن العلاقة بين الجنين وأمه، وآثارها على نموه النفسي. وقد انطلقت هذه النظرية من مرجعية التحليل النفسي، ومن السجلات الغنية بالمعطيات لملاحظة الأطفال المفصولين عن ذويهم من نزلء مؤسسات الرعاية التي عمل بها «بولبي». وما لبث أن عين في بداية الخمسينات رئيساً لوحدة الصحة النفسية في منظمة الصحة العالمية. ولقد وضع بتعاون مع فريق من العلماء من بينهم «بياجيه» و«شبيتر» و«إيركسون» و«مرغريت ميد» تقريراً عن آثار الانفصال عن الأم صدر عام 1951 بعنوان «الرعاية الأمومية والصحة النفسية» عن منظمة الصحة العالمية.

وطور «بولبي» نظريته مستفيداً من مبادئ فطرية العلاقة بين صغير الحيوان وأمه، ومبدأ المراحل الحرجة الذي يذهب إلى أن هناك فترة حساسة لانطلاق العلاقة بينهما. ومن خلال هذه الأعمال وضع أساس نظرية التعلق في ورقتين الأولى تهتم بـ «طبيعة رباط الطفل بأمه» والثانية تهتم بـ «قلق الانفصال». تقرر الورقة الأولى أن هناك مكونات غريزية تنشط آليات الارتباط: التشبث، والاتباع، والامتصاص، وكذلك آليات الإشارة وأبرزها الابتسامة والبكاء اللذان يمثلان نقطة تفاعل علائقي مع الأم أو بديلها. وكلها آليات تنمو خلال السنة الأولى بمعزل عن إشباع الحاجات الأولية، وتتكامل فيما بينها كي تتركز على شخصية أم محددة خلال النصف الثاني من السنة الأولى. أما الورقة الثانية فتتمثل فكرتها الأساسية في أن نظريات التحليل النفسي التقليدية والسلوكية لا تستطيع تفسير شدة تعلق الصغير بأمه، ولا ردود الفعل المأساوية على الانفصال عنها. ويمر رد الفعل على الانفصال بأربع مراحل بناء لدراسة علمية حول الموضوع. مرحلة الذهول تليه مرحلة التفطر العاطفي والاحتجاج، ويأتي الأسى والتفكك في المرحلة الثالثة، ثم تحدث عملية إعادة تنظيم حياتي دفاعي في المرحلة الرابعة.

لقد فتحت هذه النظرية آفاقاً هامة في مجال بناء الركائز الأولى للصحة النفسية خلال عملية التفاعل المتبادل والانتقائي ما بين الطفل والأم أولاً، ثم بينه وبين الأقربين من أفراد أسرته. وهو ما يضع أسس الطمأنينة القاعدية بالسيطرة على واقعه، ذلك الإحساس الذي يطلق طاقات النماء لديه.

3. التطوير لنظريات التعلق

لقد تم القيام بسلسلة من الأبحاث التي ركزت على التفاعل المبكر جداً بين الطفل وأمه، وصولاً إلى الحياة الجينية ولقد اتضح أن التفاعل والعلاقة هما أبكر مما اعتقده «بولبي»، الذي اعتقد أن العلاقة الانتقائية تقوم بعد الشهر السادس. وكانت نتائج الأبحاث الفرنسية والأمريكية مذهلة في كشفها عن الغنى الهائل للتفاعل بين الوليد وأمه، منذ ما قبل الميلاد وفي أيام الحياة وأسابيعها الأولى. أورد الباحث «هوير مونتانييه» سنة 1988 ملخصاً حول ما وصلت إليه الأبحاث في المركز الوطني الفرنسي:

- لدى المولود الجديد حساسية فطرية لتمييز الروائح، وهو ما يؤسس لعلاقة ألفة مع رائحة أمه منذ اليوم الثالث، وكأنه يرسم لها خريطة كيميائية.
- لدى المولود الجديد حساسية لسماع دقات قلب أمه وترانيم صوتها، حيث يستجيب الجنين لدقات قلبها منذ أسبوعه الخامس والعشرين. يهدأ بالدقات العادية وينزعج بالدقات الغير عادية. ويكيف امتصاصه تبعاً للاقتزان الصوتي. ويقوم بسلوك كامل ومعقد لمختلف المثيرات التي تأتيه من الأم دون غيرها (وضعية الاحتضان بين الذراعين على الصدر).
- يستطيع أن يقوم بمحاكات حركات الوجه وهو ما سمي بـ«التزامن التفاعلي»
- له قدرة على الإدراك التولييفي في صيغة مميزة وانتقائية ما بين صوت الأم ووجهها منذ سن الأسبوعين.
- أن تغيير المربية يؤدي إلى انزعاج الطفل، ويحدث اضطراباً في عملية التفاعل.
- كما أن الطفل ينزعج من تعابير وجه أمه الجامد، يتوقف عن الابتسامة ويدير وجهه. يبدو وكأن الطفل يحاول ضبط سلوك أمه وتوجيهها كي تتجاوب معه.
- نظام التفاعل بين الطفل وأمه يحرك الخرائط العصبية الدماغية الفطرية للتفاعل والعلاقة فيعززها وينميها وينشطها. (الطفل يملك حالة ما بين ذاتية أولية على شكل تجهيز دماغي معقد من الاستعدادات والقدرات على الاتصال).
- للطفل قدرة هائلة على التعلم الشرطي.
- قدرة الطفل على القيام بعدة عمليات معرفية، ومن هنا تبين أن الطفل كائن منظم وليس فقط منظماً، وفاعل وليس فقط منفعلاً.

أما الجامعات الأمريكية الكبرى فقد اهتمت بالتعلم في المرحلة الجنينية، حيث أجريت دراسات في جامعة فلوريدا وكولومبيا تبين قدرة الطفل على التعلم قبل الميلاد، وتذكر بعض مظاهر حياته الجنينية. كما اهتمت الدراسات بأثار انفعالات الأم على الجنين والمولود الجديد، والنمو المعرفي عند الطفل، والعلاقة بين كثافة التواصل ونمو الذكاء، وكلها تلتقي على أهمية هذه العلاقات في إرساء أسس الصحة النفسية (حجازي، 2003).

خلاصة نرى بأن هذه الإشارات البسيطة لبعض نتائج البحث العلمي تشير إلى أهمية علاقة الطفل بأمه، ثم أسرته من بعدها في نمو الطفل وثقته بنفسه وإمكاناته وقدراته. كما تبين أن هذه العلاقة فطرية وأولية، وتبين في المقام الثالث كم أن الطفل مزود بالإمكانات العصبية الخلاقة منذ ما قبل الميلاد.

منهجية البحث وأدواته

1- مشكلة البحث

لم يعد يختلف الباحثون بأن كل طفل له قدرة فطرية واستعدادات أولية للتعلم والنمو. هذه القدرة الداخلية تتأثر بالتجربة التي يقدمها المحيط، كما أنها تتحكم ولو جزئياً في الطريقة التي يرد بها الأطفال على هذه التجارب التي يعيشونها. فالتفاعل الدينامي بين القدرات والاستعدادات الذاتية من جهة وما يقدمه المحيط من جهة أخرى يكون مرتفعاً جداً خلال السنوات الأولى من الحياة. والأفراد الذين يشاركون في تكوين المحيط الذي يولد وينمو فيه الطفل، يكونون قاعدة لنموه من خلال تلبية احتياجاته وتقديم الحماية اللازمة، والأمن العاطفي الذي يحتاجه الطفل.

وتعتبر السنوات الأولى القاعدة التكوينية لكل كائن إنساني. فهذه المرحلة هي التي تحدد التطور والتقدم الجسمي والنمو النفسي والاجتماعي، والذي لا يقارن لما سيقع في المراحل المتقدمة من العمر (Ximena, 2007).

وتعرف مرحلة المهد عبر وصف النمو الجسمي الحركي، والاجتماعي الانفعالي، والمعرفي، واللغوي. مع التأكيد على العلاقة الوثيقة التي تربط هذه المجالات ببعضها البعض، وعلى وحدة النمو. كما تمثل معايير النمو المؤشرات التي تحدد لنا في كل مرحلة المعرفة الدقيقة بخصائص الأطفال ومعالم نموهم في مختلف الجوانب.

وكما يؤكد «بولبي» فإن التفاعل الذي يقع بين الطفل ومحيطه، يمكن أن يخلق مسالك ثانوية في بعض الأحيان، وذلك تحت تأثير العوامل الخارجية يؤدي بالطفل إلى مغادرة مسلك النمو العادي وإلى اتباع مسالك أخرى. هذا التحول يمكن أن يكون متكيفاً أو غير متكيف (Mathijs, 2006). فالطفل الذي يحرم من علاقته بأمه أو من يحل محلها منذ الشهور الأولى ويودع في مؤسسة للرعاية سيحرم من التفاعل المناسب الذي يمكن أن يقدمه له المحيط. وبالتالي سيؤثر ذلك على وحدة نموه ونضجه وتوازنه وبالتالي على التكيف الملائم مع بيئته ومع ما يقدم له من خبرات وتجارب.

فالسؤال هنا: هل يختلف النمو النفسي لدى الأطفال المحرومين والدياً والمودعون في مؤسسات الرعاية مقارنة بأقرانهم في مرحلة المهد و المقيمون مع أسرهم؟

ومن هنا سنضع الأسئلة الفرعية التالية:

- هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين أبعاد النمو والقيمة المعيارية للنمو؟
- هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الأطفال المحرومين والدياً و أقرانهم العاديين في أبعاد النمو النفسي بمرحلة المهد؟
- هل توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين أبعاد النمو النفسي؟
- هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية في أبعاد النمو النفسي لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً والأطفال العاديين في مرحلة المهد على مستوى الجنس؟

2- فرضيات البحث

1. توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال العاديين ومعايره حسب المقياس المستخدم لصالح الأطفال العاديين.
2. توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً ومعايره حسب المقياس المستخدم لصالح معايير النمو.
3. توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً وبين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال العاديين في مرحلة المهد لصالح الأطفال العاديين.
4. توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين أبعاد النمو عند عينة الأطفال ككل.
5. لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً ومتوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال العاديين على مستوى الجنس.

3- عينة البحث

تكونت عينة البحث من مجموعتين:

المجموعة الأولى تتكون من 30 طفلاً في مرحلة المهد من الأطفال العاديين أي الأطفال الذين يعيشون في كنف أسرهم (تتراوح أعمارهم من 6 أشهر إلى 12 شهراً) وتنقسم بدورها إلى مجموعتين: 15 إناث و 15 ذكور. وقد تم اختيار العينة من الرباط بالمركز الصحي ابن خلدون (الذين يأتون للقيام بالتلقيح). وبعض دور الحضانة بالرباط (4 أطفال) والبقية قمت بزيارتهم بين أهلهم في مقر إقامتهم.

المجموعة الثانية تتمثل من 30 طفلاً في مرحلة المهد من الأطفال المحرومين والدياً (تتراوح أعمارهم من 6 أشهر إلى 12 شهراً) المقيمين في مؤسسات الرعاية: ب الرباط، القنيطرة، الدار البيضاء، فاس، مراكش، طنجة.

ويبين الجدول التالي توزيع العينة على مناطق البحث.

جدول رقم (2): توزيع العينة على مناطق البحث

العينة	أسماء المراكز	إناث	ذكور	المجموع
المحرومون والديا ومؤسساتهم	للا حسناء بالدار البيضاء	3	8	14
	مركز الأمل بفاس	2	4	7
	مركز للا مريم بالرباط	2	2	4
	مركز حماية الطفولة بالقنيطرة (مستشفى الإدريسي)	2	1	3
	دار الأطفال بطنجة	2	0	2
	مركز حماية الطفولة بمراكش (إيزيل)	4	0	4
الأطفال العاديين		15	15	30
المجموع		30	30	60

4- محددات البحث

تنحصر حدود هذه الدراسة في أفراد العينتين المشار إليهما آنفا. ومن هنا، فإن نتائجها لا تنطبق سوى على هذه العينة المدروسة، وعلى ما شابها من الأطفال الذين يعيشون نفس الوضعية ويخضعون لنفس التأثيرات البيئية. مما يدل على أن نتائج الدراسة لا تنطبق على جميع أطفال مرحلة المهد لم تكن لهم نفس ظروف أفراد العينة موضوع الدراسة.

5- تحديد المفاهيم الإجرائية للبحث

1. الأطفال العاديين: هم الأطفال الذين يعيشون في كنف أسرهم (الأم والأب والإخوة إن وجدوا)، أو يذهبون إلى دور الحضانة خلال ساعات عمل الأم. وتتراوح أعمارهم بين ستة أشهر وسنة.
2. الأطفال المحرومين والديا: هم الأطفال الذين يقيمون بدور الرعاية بالمغرب. وتتراوح أعمارهم بين ستة أشهر وسنة.
3. معايير النمو: هي القيمة التي حددها المقياس لكل فئة عمرية (كل ستة أشهر).
4. درجة النمو: هي الدرجة التي يقيسها المقياس في كل بعد من أبعاد النمو (الجسمي الحركي، الاجتماعي الانفعالي، المعرفي، اللغوي) أو في النمو الكلي.
5. مرحلة المهد: هي المرحلة التي تبدأ من ستة أشهر إلى نهاية السنة الأولى.

6- منهج البحث

استخدم هذا البحث خلال جمع البيانات المنهج الوصفي، باعتباره المنهج المناسب في الدراسات التي تهدف إلى وصف الظاهرة كما هي في الواقع، وذلك من خلال جمع البيانات اللازمة باستخدام مقياس معايير النمو.

7- أدوات البحث

استخدم خلال هذا البحث مقياس معايير النمو النفسي (عليان و مطر، 2009) الذي يمثل المؤشرات التي تحدد لنا في كل مرحلة المعرفة الدقيقة بخصائص الأطفال ومعالم نموهم في مختلف المجالات النمائية التالية:

- أ. المجال الاجتماعي الانفعالي: ويشمل المجال التكيفي والمجال التفاعلي
- ب. المجال الحركي: قدرة الطفل على استخدام وضبط عضلات الجسم الكبيرة والدقيقة.
- ج. مجال التواصل: التواصل الاستقبالي والتواصل التعبيري
- د. المجال المعرفي: المهارات والقدرات العقلية (مع استثناء مهارات اللغة والتواصل) كالانتباه، الإدراك (عليان ومطر، 2009).

الخصائص السيكومترية للمقياس

لقد تم ترجمة المقياس وتحكيمه بعرضه على أساتذة في مجال علم النفس الطفل بالجامعة الأردنية في البيئة العربية.

و للمزيد من التأكد فقد قامت الباحثة بحساب الاتساق الداخلي للمقياس

لقياس التناسق والارتباط الداخلي للمقياس، قمت بحساب معامل ألفا- كرومباخ. ويعتمد على حساب الارتباط الداخلي بين إجابات الأسئلة. وقد وجدت النتائج التالية بالنسبة لمرحلة المهد:

جدول رقم (3) قيمة معامل ألفا-كرومباخ

أبعاد المقياس	معامل: ألفا- كرومباخ
النمو الجسمي-الحركي	Alpha = .9203
النمو الاجتماعي والانفعالي	Alpha = .9151
النمو المعرفي	Alpha = .8623
النمو اللغوي	Alpha = .7694

و تدل النتائج فعلا على أن المقياس يتميز بتناسق داخلي جيد بالنسبة لهذه العينة.

طريقة تطبيق المقياس

يستغرق تطبيق المقياس من 25 دقيقة إلى 45 دقيقة لكل فرد من أفراد العينة. و قد روعيت تعليمات تطبيق كل فقرة، ومعايير تصحيحها.

8- المعالجة الإحصائية لبيانات البحث

قامت الباحثة بالتحليل الإحصائي للاستبيانات بالاعتماد على أدوات برنامج IBM SPSS Statistics؛ حيث تم استخدام: التحليل العاملي، اختبار «ت» لتحديد دلالة الفروق، المخطط الصندوقي، الرسوم البيانية.

عرض ومناقشة نتائج البحث

قامت الباحثة بالتحقق من الفرضيات التالية:

1. توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال العاديين ومعايره حسب المقياس المستخدم لصالح الأطفال العاديين.
2. توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً ومعايره حسب المقياس لصالح معايير النمو.
3. توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً وبين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال العاديين في مرحلة المهد لصالح الأطفال العاديين.
4. توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين أبعاد النمو عند عينة الأطفال ككل.
5. لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً ، ومتوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال العاديين على مستوى الجنس .

أولاً: بالنسبة لعينة الأطفال العاديين

الفرضية الأولى: توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال العاديين ومعايره حسب المقياس المستخدم لصالح الأطفال العاديين.

للتحقق من الفرضية تم استخدام اختبار «ت» للعينة المستقلة والذي أعطى النتائج التالية:

جدول رقم (4) يوضح اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسطات درجات النمو بأبعاده لدى عينة الأطفال العاديين والقيمة المعيارية لكل بعد والتي يعطيها المقياس.

الأطفال العاديين	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة «ت»	درجة الحرية	مستوى الدلالة
النمو الجسمي الحركي T=38	50.77	8.64	8.092	29	0.000
النمو الاجتماعي الانفعالي T=30	51.60	4.15	28.515	29	0.000
النمو اللغوي T=16	26.67	2.25	25.979	29	0.000
النمو المعرفي T=16	29.30	4.10	17.753	29	0.000
النمو الكلي T=100	160	16.00	20.576	29	0.000

يتبين من خلال الجدول رقم (4) أن قيمة اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسطات درجات كل بعد من أبعاد النمو لدى عينة الأطفال العاديين والقيمة المعيارية لكل بعد، دالة إحصائياً. فمستوى الدلالة لم يتجاوز الحد 10.00 ويمكننا من التخلي عن الفرضية الصفرية. مما يعني وجود فروق ذات دلالة مرتفعة إحصائياً بين درجات كل بعد من أبعاد النمو والنمو الكلي، وبين القيمة المعيارية لكل بعد من أبعاد النمو والقيمة المعيارية للنمو الكلي.

ونستنتج من نتيجة الاختبار صحة الفرضية الأولى القائلة بوجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال العاديين ومعاييرها حسب المقياس المستخدم لصالح الأطفال العاديين.

وتعتبر مرحلة المهد هي المرحلة النشطة في النمو النفسي عند الطفل. ففي نهاية هذه المرحلة يصبح الرضيع اجتماعياً ومتعاوناً وله قدرة خاصة على اللغة وعلى الحركات الدقيقة والتي لا يتقاسمها مع أي فصيل حيواني. وتتميز عينة البحث بكون أغلب الأمهات متفرغات لرعاية أطفالهن، أو أن إحدى المقربات من العائلة مثل الجدة أو الأخت هي التي تقوم مقام الأم في الرعاية. وبالنسبة لأفراد العينة المتواجدين في الحضنة فهم قلة ولا يقعون بها سوى بضعة الساعات. ومن هنا نرى أن هؤلاء الأطفال يتمتعون بتفاعل جيد مع المحيط الذي يعيشون فيه. ويعتبر التفاعل الاجتماعي والانفعالي وخاصة مع الأم أو من يقوم مقامها هو البوابة التي تساعد الطفل على النمو، وخاصة في السنة الأولى. وتمكنه من إقامة علاقة تعلق متبادلة تثير النمو على كافة أبعاده النفسية (Osterrieth,2004).

وقد أكدت الدراسة الأولى والدراسة الثانية «مشروع بلتيمور» للعالمية «ماري إينسورث» سنة 1957 على أن الاستجابة العالية للأم في الربع الأول من السنة الأولى يؤدي إلى درجة أكبر من الانسجام في الربع الأخير من نفس السنة. ويكون توجهه أكبر إلى الاستكشاف (حجازي،2013).

وكما أكد «مونتانييه» من خلال أفلام الفيديو للتفاعل مع الأم في المركز الوطني الفرنسي أن الطفل قادر منذ أيامه الأولى بعد الميلاد على القيام بعدة عمليات معرفية وهو بالتالي كائن منظم وليس فقط عنصراً منظماً فاعلاً وليس منفعلاً. كل هذه المعطيات تفسر الدرجة المرتفعة التي تحصل عليها أفراد العينة. هذا علاوة على أن النمو يشهد تطوراً وتقدماً عند الأطفال بسبب الاستقرار الأمني والتطور التكنولوجي في بلداننا. نذكر هنا دراسة رايون كاتل (Raymond Gattel) التي بينت أن نسبة الذكاء أطفال السن العاشرة بقيت متشابهة بين سنة 1935 و1948 نظراً لظروف الحياة والأمن بينما ارتفع معدل الذكاء من 100 إلى 112.5 سنة 1985 بتوافر التغذية الجيدة والعيش في وسط أسري آمن ومستقر، وكذلك بالظروف الصحية العامة المتوافرة للأطفال (أوزي،1999).

ثانياً: بالنسبة لعينة الأطفال المحرومين والدياً

الفرضية الثانية: توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً ومعاييرهم حسب المقياس المستخدم لصالح معايير النمو.

و للتحقق من الفرضية استعمل اختبار «ت» للعينة المستقلة والذي أعطى النتائج التالية :

جدول رقم (5) يوضح اختبار(ت) لدلالة الفروق بين متوسطات النمو لكل بعد لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً والقيمة المعيارية لكل بعد.

الأطفال المحرومين والدياً	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة «ت»	درجة الحرية	مستوى الدلالة
النمو الجسمي الحركي	35.77	7.92	-1.544	29	0.133
	T=38				
النمو الاجتماعي الانفعالي	32.83	5.38	2.887	29	0.007
	T=30				
النمو اللغوي	21.70	3.13	9.971	29	0.000
	T=16				
النمو المعرفي	21.47	5.62	5.323	29	0.000
	T=16				
النمو الكلي	111.77	18.56	3.472	29	0.002
	T=100				

يتبين من خلال الجدول رقم (5) أن قيمة اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسط النمو الجسمي الحركي ومتوسط النمو الاجتماعي الانفعالي وبين القيمة المعيارية للنمو الجسمي الحركي والقيمة المعيارية للنمو الاجتماعي الانفعالي غير دالة إحصائياً عند عينة الأطفال المحرومين والدياً، فمستوى الدلالة تجاوز الحد 0.05. مما يعني عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين نمو البعدين الجسمي الحركي والانفعالي الاجتماعي والقيمة المعيارية لهذين البعدين. غير أن قيمة اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسط النمو المعرفي ومتوسط النمو اللغوي عند عينة الأطفال المحرومين والدياً وبين القيمة المعيارية للنمو المعرفي والقيمة المعيارية للنمو اللغوي دالة إحصائياً. فمستوى الدلالة لم يتجاوز الحد 10.0. مما يعني وجود فروق ذات دلالة مرتفعة إحصائياً بين النمو المعرفي والقيمة المعيارية للنمو المعرفي وكذلك بالنسبة للنمو اللغوي. أما بالنسبة للنمو الكلي فإن قيمة الاختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسط النمو الكلي

وقد أظهرت النتائج عدم صحة الفرضية الثانية القائلة بوجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً ومعايير النمو حسب المقياس المستخدم لصالح معايير النمو.

فرغم أن النمو الكلي مازال يظهر فروقا دالة بينه وبين معايير النمو، إلا أنه على مستوى بعض أبعاده بدأت النتيجة تصبح غير دالة. ويمكن أن ترجع نتيجة الفروق الدالة لعاملين اثنين: الأول أن هؤلاء الأطفال دخلوا إلى دور الرعاية في أعمار متفاوتة فهناك من عاش مع أمه مدة ولو قصيرة، شكلت عنده عاملاً من عوامل الحماية التي انتصر بها ولو مؤقتاً على خطر التخلي. أما العامل الثاني وهو الذي أكدته بعض العلماء مثل «Rutter» ناتج عن الاختلافات الفردية والاستعدادات الأولية، والتي إذا انضادت إليها بعض العوامل المحيطية يمكن أن تخفض من آثار التخلي وتكسبه مرونة أكثر (Anaut,2006).

نلاحظ بأن متوسط النمو الجسمي الحركي قد انخفض عن معيار المقياس غير أنه لم يصل إلى حد الدلالة، وهذا يعد مؤشراً أو منبهاً بصفة عامة للعينة ككل على خطورة وضعيتهم. فهذه المرحلة من ستة أشهر إلى سنة هي المرحلة التي يتعلم فيها الطفل بداية المشي، فهي تتطلب العناية والمراقبة المكثفة لحركاته لوقايته من الخطر وإعطائه الفرصة حتى يتدرب على الوقوف في قضاء واسع. وهذا ما لا يتوافر في دور الرعاية، فالأطفال حفاظاً على أمنهم يظلون في محيط ضيق (فراش) خلال معظم الوقت. وهذا ما أكدته دراسة فريق من الباحثين السويسريين

سنة 2000 حول الأطفال الذين يعيشون في دور الرعاية منذ الولادة في رومانيا، والذين كان متوسط أعمارهم ثمانية أشهر. فوجدوا أن النمو الجسمي لحظ تأخرأ أدنى من أبعاد النمو الأخرى (Ferrari & Bonnot, 2013).

إذا يمكن القول بأن هناك من هؤلاء الأطفال من يحاول مقاومة هذا الإهمال في انتظار من يمد لهم يد العون لمساعدتهم على التكيف والالتحاق بركب النمو السليم والمتوازن.

ثالثاً: مقارنة المجموعتين الأطفال المحرومين والدياً والأطفال العاديين

الفرضية الثالثة: توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً وبين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى عينة الأطفال العاديين في مرحلة المهد لصالح الأطفال العاديين.

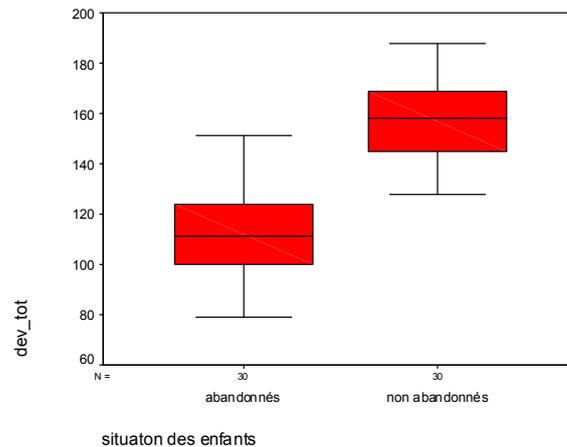
و للتحقق من صحة الفرضية استعمل اختبار «ت» الذي أعطى النتائج التالية:

جدول رقم (6) يوضح اختبار(ت) لدلالة الفروق بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده حسب وضعية الأطفال (المحرومون والدياً والعاديين)

أبعاد النمو	الوضعية	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة «ت»	درجة الحرية	مستوى الدلالة
النمو الجسمي الحركي	المحرومون والدياً	35.77	7.92	-7.009	58	0.000
	العاديين	50.77	8.64			
النمو الانفعالي الاجتماعي	المحرومون والدياً	32.83	5.38	-5.136	58	0.000
	العاديين	51.60	4.15			
النمو اللغوي	المحرومون والدياً	21.70	3.13	-7.057	58	0.000
	العاديين	26.67	2.25			
النمو المعرفي	المحرومون والدياً	21.47	5.62	-6.162	58	0.000
	العاديين	29.30	4.10			
النمو الكلي	المحرومون والدياً	111.77	18.56	-10.45	58	0.000
	العاديين	158.33	15.84			

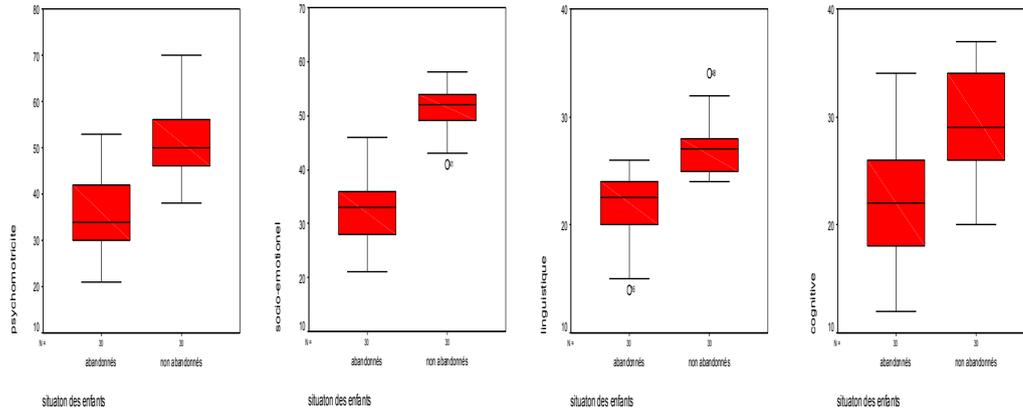
يتبين من خلال الجدول رقم (6) أن قيمة اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسطات درجات النمو الكلي ومختلف أبعاده حسب وضعية الأطفال، دالة جداً إحصائياً. فمستوى الدلالة يساوي 0.00. مما يعني وجود فروق ذات دلالة مرتفعة إحصائياً بين الأطفال العاديين والأطفال المحرومين والدياً على مستوى النمو العام، وعلى مستوى كل بعد من أبعاد النمو.

وهذا ما يتضح من خلال أشكال المخطط الصندوقي التالية:



الشكل رقم(3) للمخطط الصندوقي يظهر الفرق بين النمو الكلي لدى الأطفال العاديين والأطفال المحرومين والدياً

نلاحظ أن أكثر من 50% من عينة الأطفال العاديين يتفوقون في النمو النفسي على الأطفال المحرومين والديا.



الشكل رقم (4) للمخطط الصندوقي يظهر الفرق بين أبعاد النمو لدى الأطفال العاديين والأطفال المحرومين والديا

وقد أظهرت النتائج الإحصائية من خلال الجدول رقم (6) تحقق هذه فرضية بوجود فروق ذات دلالة إحصائية مرتفعة بين متوسطات درجات النمو النفسي و أبعاده لدى الأطفال المحرومين والديا والأطفال العاديين في مرحلة المهد لصالح الأطفال العاديين.

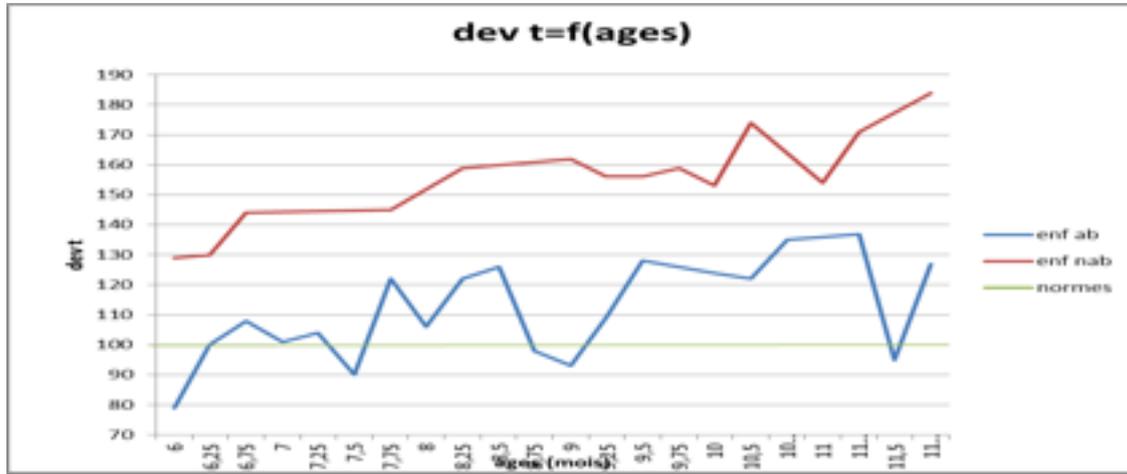
وللمزيد من الدقة فإن المخطط الصندوقي حسب الشكل رقم (4)؛ الذي يظهر الفرق بين العينتين على المستوى البعد الاجتماعي الانفعالي هو الأعلى على الإطلاق. حيث نلاحظ أن أكثر من 50% من عينة الأطفال العاديين يتفوقون في النمو النفسي على الأطفال المحرومين والديا على كل بعد، وبالنسبة للنمو الاجتماعي الانفعالي فالفرق يكاد يصل إلى 100% بين العينتين.

وقد اتفقت هذه النتائج لما خلصت إليه نتائج التقرير الذي قام به «بولبي» بطلب من منظمة الصحة العالمية حول الصحة العقلية للأطفال الذين يعيشون في دور الرعاية، والذين يتمتعون برعاية مادية مقبولة، ولكنهم يعانون من اضطرابات في النمو، إلا أنه بغض النظر على اختلاف الدول واختلاف الخدمات المقدمة في دور الرعاية، واختلاف أعمار الأطفال ... تنحو كل التحاليل إلى وصف حالة من الاضطرابات النفسية والعقلية ومن العياء الذي يوجد فيه هؤلاء الأطفال المنفصلين عن أمهاتهم. (Tourrette & Guidetti, 2014).

وعلى عكس ما اعتقده «بولبي»، الذي أكد على أن العلاقة الانتقائية تقوم بعد الشهر السادس؛ فقد كشفت نتائج الأبحاث الفرنسية والأمريكية عن الغنى الهائل للتفاعل بين الوليد وأمه، منذ ما قبل الميلاد وفي أيام الحياة وأسابيعها الأولى (حجازي، 2013)، وهذا ما تؤكد نتائج هذه الدراسة التي أبرزت انحدار درجة النمو منذ الشهر السادس وما قبله.

كما اتفقت النتائج مع ما خلصت إليه الدراسة سنة 2000 التي قام بها فريق من الباحثين السويسريين حول أطفال دور الرعاية في رومانيا حيث ركزوا على خطورة الاضطرابات النفسية، التي تعبر عن إصابة كلية أو اضطراب شامل للنمو (Ferrari & Bonnot, 2013). كما اتفقت النتائج مع ما خلصت إليه الدراسة سنة 2000 التي قام بها فريق من الباحثين الأمريكيين والتي لا تزال مستمرة حول أطفال دور الرعاية في رومانيا. وقد بينت الدراسة أن تجربة الطفولة المبكرة تأثيرات عميقة في نمو الدماغ. ولم تستطع بيوت التبني أن تعالج جميع الشذوذات العميقة في النمو والمرتبطة بالتربية المؤسساتية (شارلز نيلسون وآخرون، 2013).

وهذا فعلاً ما لاحظته خلال تطبيق المقياس (المقياس يستعمل الملاحظ والمقابلة والمواقف المقننة) على بعض الأطفال، بأن هناك تأخر عام في النمو وخمول ولا مبالاة عامة، إلى درجة أنني أذهب لتأكد مرة ثانية من العمر الزمني للأفراد العينة، وأتأكد من أنهم لا يعانون من أي مرض جسدي أو إعاقه ذهنية. وعلى سبيل المثال إذا أخذنا الشكل رقم (7) للرسم المباني فقد استخرجت منه النتائج التي تخص بعض العينات: فتاة في عمر 9 أشهر وثلاثة أسابيع من المحرومين والديا لها 95 درجة في النمو العام بينما آخر درجة للأطفال العاديين هي 129 لفتاة عمرها ستة أشهر. ومن هنا نرى من خلال نتائج الدراسة أن النمو يعرف انخفاضاً عاماً ودالاً على مستوى النمو الكلي بالنسبة للأطفال المحرومين والديا، وذلك منذ بداية الشهر السادس كما جاء في عينة البحث.



الشكل رقم (7): النمو العام بدلالة العمر الزمني

نلاحظ من خلال الشكل (7) أن المحرومين والدياً تتراوح درجة النمو الكلي بين 80 و 140 بينما عند العاديين تتراوح بين 130 و 180 درجة. علاوة على ذلك فالدالة بالنسبة للأطفال العاديين تظهر اختلافاً طبعياً بين الأفراد والنمو يتزايد بطريقة طبيعية مع ازدياد العمر. أما بالنسبة للأطفال المحرومين والدياً فالدالة تظهر تفاوتاً غير عادي في النمو النفسي وذلك يظهر في الانكسارات المتعددة، وهذا يعني أن الأطفال لا يتأثرون بنفس الطريقة عند تعرضهم للحرمان الوالدي فهناك من يبدي بعض المرونة فترتفع درجة نموه نسبياً رغم وضعية الحرمان وهناك من يبدي رفضه للوضع فيعيش في تراجع مستمر.

أما على مستوى البعد الجسمي الحركي فالفروق دالة إحصائياً لصالح الأطفال العاديين. وهذا ما أثبتته الدراسة التي قام بها الباحثون من سويسرا والتي ذكرناها سابقاً. حيث أن النتائج على السلم الفرعي PDI أثبتت تأخر في النمو في الحركات الدقيقة والحركات الكلية. ومن خلال تطبيق المقياس على العينة: فالأكثر البارز هو على مستوى الحركات الدقيقة حيث أن الأغلبية (66.7%)، لا تستطيع التقاط الزبيب بنهاية الإبهام ونهاية الأصابع خلال الموقف المقنن، في حين أن هذه النسبة عند الأطفال العاديين هي (3.3%) والأغرب أن هناك من لا يستطيع أن يدرك وجود الزبيب أمامه أو أنه لا يستطيع أن يركز نظره عليها. أما من خلال المقابلة فإن المربيات يكن في الأغلب واعيات بالتأخر في الحركات الكبيرة، وبالنسبة للحركات الدقيقة، فهن يدركن النتيجة لأول مرة حينما أقوم بالموقف المقنن. وذلك بنظري يرجع لعدة أسباب، أولها أنهن موظفات يعملن بدوام رسمي، مما يؤدي إلى كثرة الغيابات وتغير الوجوه بالنسبة للطفل. كما يعهد لكل مربية بعدد كبير من الأطفال لا يتيح لها سوى القيام بمهام العناية بالتغذية والنظافة، بدون توفر فرص التفاعل الكافي. وسبب هام آخر هو جهل المربيات بواجبهن تجاه هؤلاء الأطفال فمستواهن الدراسي لا يتناسب مع هذه المهمة التي تتطلب مهارات معينة.

وكما بينت النتائج فبعد التفاعل الاجتماعي الانفعالي حضي بأكثر الفروق بين العينتين الشكل (4)، وقد اتفقت هذه النتائج مع ما خلصت إليه نتائج الفريق السويسري حينما استعمل اختبار ECSP للتواصل الاجتماعي الأولي، وكشف على أن الأطفال في عمر 32 شهراً يمتلكون مهارات العمر بين 17 و 24 شهراً.. وأنهم عرفوا تضرراً في بناء الهوية الذي سيولد بدوره تشويهاً في المراحل المقبلة في بناء العلاقات مع الموضوع، كما أن هناك تضرراً كلياً في البناء النفسي للطفل (Ferrari & Bonnot, 2013).

وكذلك الفريق الأمريكي في دراستهم عند قياس القدرة على تكوين علاقات وثيقة لدى أطفال المؤسسات، فقد وجد هذا الفريق أن الأغلبية الساحقة تظهر علاقات ناقصة وزائفة مع القائمين على رعايتهم (شارلز نيلسون وآخرون، 2013).

أما على مستوى المقياس فإنني كنت أقوم بتطبيقه في نفس الفترة على العينتين مما مكنتني من ملاحظة الفرق في التواصل والتفاعل معهم. فقد كنت أقيم ألفة قبل تطبيق المقياس مع الأطفال العاديين حيث أنهم منذ البداية ينظرون لي بحذر. وبعد ذلك هناك من ينسجم بسهولة، وهناك من يتطلب أكثر تقرب. أما بالنسبة للأطفال المحرومين والدياً فمنهم من يكون غير مبال وهم عينة قليلة، لا ينفرون ولا يتجاوبون وهذه العينة هي التي تتميز بنقص واضح في النمو الكلي. وهناك من يبتسم إلى كل من يدخل، وبشكل مبالغ فيه، في حين أن الطفل تتوقف عند الابتسامة عند نظره للوجوه الغريبة. وقد بدوا لي وكأنهم بتعبير التحليل النفسي وقع لهم تثبيت في مرحلة سابقة، يستعملون الآلية الدفاعية: النكوص وهو حسب الموسوعة العربية « الارتداد إلى مرحلة باكراً في حياة الفرد، ويمثل إحدى الآليات الدفاعية التي يلجأ إليها الفرد ليتجنب ما يعانیه من صراع أو قلق جزئي أو كلي بالعودة إلى مرحلة أو نمط سابق في حياته » ويلجأ إليها الفرد أولاً في احتمال العثور على الإشباع الذي يبحث عنه. وحسب «سبيتر» فإن الابتسامة هي الرابط الذي يمهد للتبادل الانفعالي والاجتماعي، ومن خلال المحاكاة يتعلم الطفل كيف يحب عندما يشعر بأنه محبوب.

وقد لاحظت خلال تطبيق المواقف المقننة التي يوجد بها ضجيج، أو إسقاط لشيء يحدث صوتاً، بأن هناك من الأطفال المحرومين والدياً من يبدي علامات للفرع وكأنه يخاف من شيء معين. وقد فسرت ذلك بنقص الجانب

الأمني الذي توفره علاقة التعلق الآمنة مع الأم والمفقودة لديهم؛ حيث إنهم لا أحد منهم يبدي مشاعر القلق عند فصله عن المربية، أو يميز بين المؤلفين وغير المؤلفين سوى فتاة واحدة (أي بنسبة 1.83% من العينة ككل). والفترة التي يكون فيها التفاعل بارز بين الأم ورضيعها هي فترة تقديم الرعاية مثل الأكل، والنظافة وما إلى ذلك... وخلال هذا الوقت عادة ما تكون المربية مشغولة بسرد مشاكلها لزميلتها خاصة مرحلة الأكل التي تتطلب منها الجلوس في مكان واحد. فعادة ما تنعدم فرصة التبادل والتفاعل بينها وبين الطفل، والذي هو بدوره أصبح يبادلها النظرة اللامبالية. وبقيّة الأعمال تقوم بها بسرعة فائقة نظراً لكثرة مسؤولياتها، ثم يبقى الطفل في فراغ بدون مثيرات بدون تفاعل يساعده على الإحساس والإدراك بجسمه وبخصائصه وبمحيطه. وهذا ما أكدته حجازي حينما تكلم عن الأطفال المحرومين والدياً: «حين يتقدمون في السن وهم في المؤسسة يظل تحصيلهم متدن عموماً. إلا أن الأبرز هو تدني نمو ذكائهم الانفعالي، وكفاءتهم الاجتماعية. فهم يتعرضون إلى ما يطلق عليه الاختصاصيون تعبير «المؤسسة» (حجازي، 2013:174)..»

وبخصوص البعدين اللغوي والمعرفي اللذين يظهران نتائج متقاربة، غير أن البعد المعرفي أبدي أعلى نسبة في صموده مقارنة ببقية الأبعاد فقد ذكر ليكراي Lecuyer سنة 2004 بأن الأطفال حديثي الولادة يتفرغون لتنمية قدراتهم المعرفية (Tourrette & Guidetti, 2014) غير أن الفرق يبقى دالاً بين العينتين. وقد اتفقت هذه النتائج لما خلصت إليه نتائج الدراسة الأولى والثانية للعالمية «ماري إينسورث» سنة 1957، والتي أثبتت بأن علاقة التعلق المطمئنة مع الأم تدفع الطفل إلى مزيد من الاستكشاف (حجازي، 2013).

وقد اتفقت هذه النتائج كذلك لما خلصت إليه نتائج دراسة الباحثين السويسريين من انخفاض للعمر الذهني بالمقارنة مع العمر الزمني للأطفال المحرومين والدياً والذين كان متوسط أعمارهم ثمانية أشهر. فقد قاموا بتطبيق سلم النمو ل «Bailey» والذي له ثلاثة سلالم فرعية أولها يقيس العمر الذهني فوجدوا أن متوسط العمر الذهني هو أربعة أشهر ونصف. والأطفال الذين لديهم عمر زمني 34 شهراً، لهم عمر ذهني يساوي 18 شهراً.

أما الدراسة الأمريكية فقد استعملت إلى جانب متوسط حاصل الذكاء، تقنيات حديثة لإثبات نفس النتائج، والتي استعملت جهاز تخطيط كهربائية الدماغ (EEG) لدراسة نشاط المخ، وتقنية الرنين المغنطيسي. وهذه الأخيرة أثبتت أن أطفال المؤسسات قد أظهروا تراجعاً كبيراً في كمية كل من المادة الرمادية والمادة البيضاء. وعلى العموم، كانت أحجام أدمغة جميع الأطفال الذين وضعوا في المؤسسات أصغر. وفي حين لم يكن وضع الأطفال في بيوت التبني في أي عمر يؤثر في زيادة كمية المادة الرمادية، فقد أظهرت مجموعة بيوت التبني مستويات من المادة الرمادية مماثلة لتلك لدى أطفال المؤسسات. ومع ذلك، فإن أطفال بيوت التبني قد أظهروا كمية من المادة البيضاء أكبر من تلك لدى مجموعة أطفال المؤسسات، مما يفسر التغيرات في النشاط الدماغي.

وقد بينت الدراسة أن لتجربة الطفولة المبكرة تأثيرات عميقة في نمو الدماغ. ولم تعالج بيوت التبني جميع الشذوذات العميقة في النمو والمرتبطة بالتربية المؤسساتية كما يجب، ولكنها وجهت بشكل قاطع نمو الطفل نحو مسار أكثر صحة. كما اتفقت نتائج هذه الدراسة إلى أنه كلما تأخر وضع الأطفال في بيوت التبني كان تراجعهم اللغوي أكثر (شارلز نيلسون وآخرون، 2013). ولنا أن نذكر هنا التجربة التي قام بها الإمبراطور فريديريك الثاني، في القرن الثالث عشر حين عزل ستة منذ الولادة في حضانه. وطلب من الممرضات أن يعتنين بهم دون أن يتحدثن معهم، ليرى ما هي اللغة التي سيختارونها بشكل طبيعي، ولكن عوضاً عن الكلام فقد تولى هؤلاء الأطفال جميعاً (Vidailhet, s.d). وكما رأينا في الجانب النظري فقد ركز «برينر» على السياق الاجتماعي التواصلي في النمو اللغوي فبقدر ما تتوطد العلاقة بين الطفل وأمه بقدر ما يختزن أصواتها فيقلدها. وكل نقص عاطفي في تعامل الأم مع رضيعها يؤدي إلى التأخر في ظهور اللغة (أوزي، 2013).

الفرضية الرابعة: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين أبعاد النمو عند عينة الأطفال ككل.

جدول رقم (7) معامل الارتباط بين النمو العام وأبعاده فيما بينها

أبعاد النمو	النمو الجسمي	النمو الاجتماعي	النمو اللغوي	النمو المعرفي	النمو الكلي
معامل الارتباط	1.000	0.816**	0.607**	0.805**	0.933**
الدلالة	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000
معامل الارتباط	0.866**	1.000	0.748**	0.815**	0.950**
الدلالة	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000
معامل الارتباط	0.607**	0.784**	1.000	0.674**	0.779**
الدلالة	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000
معامل الارتباط	0.805**	0.815**	0.674**	1.000	0.908**
الدلالة	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000
معامل الارتباط	0.933**	0.950**	0.779**	0.908**	1.000
الدلالة	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000

**الارتباط دال عند مستوى 0.01

يتضح من خلال الجدول رقم (7) أن قيمة معامل الارتباط بيرسون بين كل الأبعاد فيما بينها وبين النمو الكلي تقع بين $0.5 < r < 1$ ، مما يعني أن هناك علاقة ارتباطية موجبة ذات دلالة مرتفعة إحصائياً عند مستوى 0.01.

وتظهر هذه النتائج تحقق الفرضية الرابعة التي تقول بوجود علاقة ذات دلالة إحصائية مرتفعة بين أبعاد النمو عند عينة الأطفال ككل.

وقد أشارت الباحثة أن من خصائص النمو هو التناسق والانسجام في كل أبعاده. فالنمو عملية ديناميكية تفاعلية تتصف بإعادة الترتيب والتنظيم. وهو وحدة متكاملة لا يمكن تجزئته غير أننا نضطر لذلك من أجل الدراسة والفهم. وهذا يمكننا إذا أردنا أن نتقدم في الجانب الإحصائي من إيجاد معاملي الدالة الإحصائية، التي تمكننا من عملية التنبؤ بالنمو.

إن الطفل يولد باستعدادات مختلفة، وبمهارات تمكنه من جلب انتباه المحيط المتعاون، للطريقة المثلى التي يمكن أن يقدمها له، من أجل إعانته على نمو سليم ومتناسق ودينامي. غير أنني لم أجد في الجانب النظري أو الدراسات السابقة ما يفسر لي ضعف العلاقة بين بعض الأبعاد مما يستوجب مزيداً من البحث. وبالرغم من تدني نتائج النمو على مستوى كل الأبعاد، إلا أن التناسق يبقى تقريباً موجوداً على مستوى أغلب الأبعاد. وربما التجربة التي قام بها الإمبراطور فريديريك الثاني والتي ذكرناها سابقاً تؤكد بصفة قطعية على هذا الترابط، حيث أدى انقطاع التفاعل الاجتماعي وهو أساس التعلم إلى اختيار الموت على الحياة الميتة، ولم يسعفهم النضج الذي يرجع إلى تكوينهم الفيزيولوجي من الاستمرار في الحياة.

الفرضية الخامسة: لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات النمو النفسي وأبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً ومتوسطات درجات النمو النفسي وأبعاده لدى عينة الأطفال العاديين على مستوى الجنس.

جدول رقم (10) يوضح اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسطات درجات النمو الكلي وأبعاده حسب الجنس

أبعاد النمو	الجنس	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة «ت»	درجة الحرية	مستوى الدلالة
النمو الجسمي الحركي	الذكور	42.33	11.38	-0.644	58	0.522
	الإناث	44.20	11.06			
النمو الانفعالي الاجتماعي	الذكور	42.23	10.24	-0.012	58	0.990
	الإناث	42.20	11.11			
النمو اللغوي	الذكور	23.80	3.03	-0.803	58	0.425
	الإناث	24.57	4.26			
النمو المعرفي	الذكور	24.90	8.82	-0.593	58	0.556
	الإناث	25.87	6.78			
النمو الكلي	الذكور	133.27	7.90	-0.472	58	0.638
	الإناث	136.83	30.53			

يتبين من خلال الجدول رقم (10) أن قيمة اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسطات درجات النمو الكلي وأبعاده حسب الجنس، غير دالة إحصائياً. فمستوى الدلالة تجاوز الحد 0.05. مما يعني عدم وجود فروق دالة إحصائية بين الإناث والذكور على مستوى العينة ككل.

جدول رقم (11) يوضح اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسطات درجات النمو الكلي وأبعاده حسب الجنس لدى الأطفال العاديين

أبعاد النمو	الجنس	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة «ت»	درجة الحرية	مستوى الدلالة
النمو الجسمي الحركي	الذكور	51.33	9.35	0.775	28	0.455
	الإناث	53.87	8.54			
النمو الانفعالي الاجتماعي	الذكور	51.13	4.49	0.27	28	0.603
	الإناث	51.93	3.81			
النمو اللغوي	الذكور	25.87	1.36	0.172	28	0.049
	الإناث	27.47	2.70			
النمو المعرفي	الذكور	28.00	4.07	0.801	28	0.082
	الإناث	30.6	3.83			

النمو الكلي	الذكور	156.33	15.82	0.779	28	0.202
	الإناث	163.87	15.80			

يتبين من خلال الجدول رقم (11) أن قيمة اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسطات درجات النمو الكلي وأبعاده حسب الجنس، غير دالة إحصائياً. فمستوى الدلالة تجاوز الحد 0.05. مما يعني عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين الإناث والذكور على مستوى عينة الأطفال العاديين.

جدول رقم (12) يوضح اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسطات درجات النمو الكلي وأبعاده حسب الجنس لدى الأطفال المحرومين والدياً

أبعاد النمو	الجنس	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة «ت»	درجة الحرية	مستوى الدلالة
النمو الجسمي الحركي	الذكور	35.13	8.64	-0.432	28	0.669
	الإناث	36.40	7.38			
النمو الانفعالي الاجتماعي	الذكور	33.33	5.22	-0.503	28	0.619
	الإناث	32.33	5.67			
النمو اللغوي	الذكور	21.73	2.84	-0.067	28	0.955
	الإناث	21.67	3.50			
النمو المعرفي	الذكور	21.80	5.73	-0.320	28	0.752
	الإناث	21.13	5.69			
النمو الكلي	الذكور	112.00	20.01	0.068	28	0.947
	الإناث	111.53	17.70			

يتبين من خلال الجدول رقم (12) أن قيمة اختبار (ت) لدلالة الفروق بين متوسطات درجات النمو حسب الجنس، غير دالة إحصائياً. فمستوى الدلالة تجاوز الحد 0.05. مما يعني عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين الإناث والذكور على مستوى عينة الأطفال المحرومين والدياً.

وقد أظهرت النتائج الإحصائية من خلال الجدول رقم (10) تحقق هذه فرضية بعدم وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات النمو النفسي وأبعاده لدى عينة الأطفال المحرومين والدياً ومتوسطات درجات النمو النفسي وأبعاده لدى عينة الأطفال العاديين على مستوى الجنس.

وعلى مستوى نظري لم يقع التركيز على الفروق في النمو على مستوى الجنس خاصة في مرحلة المهد. ولم أجد حسب علمي دراسة تناولت متغير الجنس في هذه المرحلة العمرية.

الخلاصة التركيبية

إن زيارتي للعديد من دور الرعاية جعلتني أشعر بأن هؤلاء الأطفال المحرومين والدياً، وكأنهم يجلسون في قاعة انتظار رحمة المتكفلين. تتردد عليهم الوجوه اللامبالية من الموظفين ومن الزائرين، كل ما يدور حولهم مؤقت لا شيء يستقر ويستمر حتى وجوه زملائهم. علاوة على أنهم لا يعرفون من الأماكن سوى المركز بل الغرفة أو المستشفى في حالة المرض.

أين هؤلاء من نتائج البحوث العلمية التي بدأت تظهر منذ النصف الثاني للقرن السابق، والتي تؤكد على أهمية هذه المرحلة. فالانحراف بزاوية بسيطة على النمو الطبيعي في الشهور الأولى يؤدي إلى توسع الفجوة عند الكبر، بل كما يبين هذا البحث منذ النصف الثاني للسنة الأولى، وكما يقول (Berger, 2007): «يكون تشخيص النمو عند الأطفال الذين يعيشون ضحية للإهمال متدن وواضح» (Lachaussé, 2012: 10)

فالمثيرات التي تمرر إلى الدماغ عبر الحواس قبل وبعد الولادة هي التي تمكن من التمييز بين وظائف الخلايا والمسالك العصبية. يقول «Balbernie»: «التأثير على نمو الدماغ يمكن أن يكون مباشراً؛ فغياب التحفيز يمكن أن يؤدي إلى تدنٍ في نمو بعض المناطق الدماغية مثل الفص الصدغي المسؤول عن تنظيم الانفعالات ومعالجة المعلومات الحسية» (Lachaussé, 2012: 21) ..

وإذا كان الجهل الموجود عند عموم الناس حول الطفولة متعمق بالنسبة لمرحلة المهد وأهميتها فهو متعمق أكثر بالنسبة للأطفال المحرومين والدياً. وإن هذه الأرقام هي أكثر من أن تكون مجرد فوارق إحصائية تفصل بين مجموعتين من الأطفال تعيش هنا أو هناك؛ إننا نتكلم على نسبة 1.3% كما أشرنا سابقاً من شباب المستقبل وكما يقول «Barudy»: «غالباً ما يجدون صعوبات كبيرة في تشكيل روابط وعلاقات مستقرة، وفي المشاركة في

دينامية العلاقات الاجتماعية» (18: Lachaussé, 2012)..

إن الاستفادة من نتائج مثل هذه البحوث تمكننا من تجنب فقدان وقت ثمين في حياة الطفل. كل شهر في حياة الرضيع يمثل لحظة مهمة للنمو.

وإذا كان المثل المغربي يقول: « ما يكبر راس حتى يشيب راس»، فإن هؤلاء الأطفال لم يشيبوا أي رأس في صغرهم ولكنهم سيفعلون ذلك في كبرهم مع رأس المجتمع ككل.

المراجع

المراجع العربية:

- أوزي، أحمد (2013). سيكولوجية الطفل ونظريات النمو النفسي (الطبعة الثالثة). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- أوزي، أحمد (2016). المعجم الموسوعي الجديد لعلوم التربية. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- بن زديرة، علي. (2006). الحرمان العاطفي وأثره على جنوح الأحداث. بحث لنيل الماجستير منشور. عناية: جامعة الباجي مختار.
- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (2014). مركز الإنماء العربي للأمم المتحدة. تقرير التنمية الإنسانية العربية. التوجيهي، عبد العزيز محمد الشريف (2006). الطفولة المبكرة. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
- عبد الكريم، رضوان. (2009). علم النمو والتطور growth_and_develop.pdf/02/http://site.iugaza.edu.ps/arodwan/files/2010
- شارلز، ن.، ناتان، ف.، زينييه ج (2013). محنة الطفل المتخلى عنه. مجلة العلوم الترجمة العربية لمجلة سينتيفايك أمريكيان سبتمبر 29 من موقع http://www.ooloommagazine.com/Articles/ArticleDetails.aspx?ID=2743
- عليان، خليل ومطر، جيهان (2009). تطوير المعايير النمائية للطفل العربي. عمان الأردن
- زين الدين الطفيلي، امتثال (1992). علم النفس النمو من الطفولة إلى الشيخوخة. لبنان: دار المناهل اللبناني.
- حجازي، مصطفى (2013). الصحة النفسية: منظور دينامي تكاملي للنمو في البيت والمدرسة (الطبعة الرابعة). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي
- قناوي، هدى محمد وعبد المعطي، حسن مصطفى (2010). علم نفس النمو. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- قنطار، فايز (1992). الأمومة نمو العلاقة بين الطفل والأم. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة.
- كرم الدين، ليلي (2006). الطفولة المبكرة. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
- وليفي، هودي (2008). سيكولوجية الطفل بعد بياجي بأربعين سنة (ترجمة أوزي أحمد) في سيكولوجية الطفل: مقاربات معرفية. 154-160. الدار البيضاء.
- وليفي، هودي (2009). علم نفس الطفل. (ترجمة هاشم مي). مجد: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

المراجع الأجنبية:

- Anaut, M. (2006). L'école peut-elle être facteur de résilience ?. Empan 2006/3 (n63), p. 30-39. DOI 10.3917/empan.063.0030
https://www.cairn.info/revue-empan-2006-3-page-30.htm.
- Bower, T.G.R. (1977). Le développement de la première enfance (A.M. Graulich). 4ème édition Mar-gada.
- Dachmi, A. (2013). Psychopathologie de l'enfant : conférences à la faculté des lettres à Rabat
- Diane, E. Papalia, S. & Olds, W. & Ruth, D. Feldman. (2009). Psychologie du développement hu-main (A. Bève). Bruxelles : De Boek
- Diane P-D. U. Le développement cognitif de 0 à 2 ans ,les fondements du développement ultérieur. http://docplayer.fr/4812773-Chapitre-le-developpement-cognitif-de-0-a-2-ans-les-fondements-du-developpement- ulterieur. consulté le 05/04/2016
- Dora, K. (2002). Interventions précoces parents-enfants : avantages et limites. https://www.cairn.info/revue-la-psychiatrie-de-l-enfant-2002-1-page-103.htm. consulté le 12/05/2016.
- Ferrari, P. & Bonnot, O. (2013). Traité Européen de psychiatrie de l'enfant et de l'adolescent. Par-

is :Lavoisier.

Funck-Brentano, I.(2015). le développement affectif et cognitive de l'enfant. (5ème édition) .El-sevier : Masson http://ressourcescemeapdll.org/IMG/pdf/developpement_enfant_dossiepdf. consulté le13/3/2016.

Lachaussée,S.(2012). Les enfants négligés : ils naissent, ils vivent mais ils s'éteignent.

<https://www.cairn.info/revue-carnet-de-notes-sur-les-maltraitances-infantiles-2012-1-page-4.htm>. consulté le 05/02/2016

Mathijs, E. (2006).Le développement de l'enfant. un document de référence pour warchild. Amestrdam

http://www.warchildholland.org/sites/default/files/bijlagen/node_492/6-2013/war_child.pdf. consulté le10/03/2016.

Mustard, JF.(2010). Développement du cerveau dans la petite enfance et développement humain. In: Tremblay RE, Boivin M, Peters RDeV, eds. 2010:1-6.

<http://www.enf>.<https://www.cairn.info/revue-carnet-de-notes-sur-les-maltraitances-infantiles-2012-1-page-4.htm>. consulté le 12/05/2016

Osterrieth Paul, A. (2004). Introduction à la psychologie de l'enfant.(18ème édition) ; de boeck.

Tourrette,C.& Guidetti,M. (2014). Introduction à la psychologie du développement du bébé à l'adolescent. (3ème édition) ;Armand colin.

Tran-Thong (1992).Stades et concept de stade de développement de l'enfant dans la psychologie contemporaine .librairie philosophique : J ,Vrin.

UNICEF-LMPE (2010).Enfance abandonnée au Maroc. Etude faite par l'UNICEF.

http://www.unicef.org/morocco/french/2010Etude_Enfance_abandon_UNICEF-LMPE.pdf. consulté le 09/02/2016

Vidailhet,C.(sd).les enfants abandonnés. Pdf http://www.cph.medecine.univ-lorraine.fr/reflexions/enfant_abandonne. consulté le 09/04/2016

Vinay A.(2006). La construction du lien social chez l'enfant adopté. *Enfances & Psy*3/2006 (no 32) , p. 134-144

www.cairn.info/revue-enfances-et-psy-2006-3-page-134.htm. DOI : 10.3917/ep.032.0134.consulté le 05/04/2016

Ximena, S.,R. (2007).The ChileanExperience in Preparing Learning Progress Maps for Early-Childhood Education.

http://www.unicef.cl/pdf/WD_Learning_Standards_english_version.pdf consulté le 19/04/2016

دعوة للمشاركة

تعقد مؤسسة ثامر للتعليم المجتمعي مؤتمراً بعنوان: «الحركة النقدية في أدب الأطفال العربي» يتناول المؤتمر ويهتم بموضوع أدب الأطفال وتنقسم محاوره إلى قسمين، ينظر المحور الأول: إلى الفجوة بين الحركة الإنتاجية والحركة النقدية، فيدرس حال النقد المعاصر لأدب الأطفال، وتاريخه، وواقعه، والتجارب النقدية العينية من حيث مفاهيمها ومنهجها، كما ويتناول عوامل وظروف تطور الحركة النقدية لأدب الأطفال في العالم العربي، كذلك يعرض لتجارب في التصميم والإخراج، ولا يغفل النظر إلى تطور رسومات أدب الأطفال، وأما المحور الثاني: فهو في باب المساهمات في نقد أدب الأطفال وأدب اليافعين مرتكزاً إلى عدة محاور كالهوية، والتنوع والاختلاف، والحرب والهجرة، والتكنولوجيا وأثرها، والنصوص البصرية والرسومات، وجوائز أدب الأطفال، والاشتغال في الموروث الشعبي وتجلياته، والخيال في أدب الأطفال والتلقي.

يعقد المؤتمر في عمان - الأردن - المملكة الأردنية الهاشمية- في الفترة ما بين 19-22 تشرين الثاني/نوفمبر 2018.

علماً بأن المؤتمر هو شراكة بين مؤسسة ثامر للتعليم المجتمعي والجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية احتفاءً بأدب الأطفال واليافعين.

للاستفسار والمشاركة في البحوث، يرجى زيارة الموقع الآتي

Tamer Institute for Community Education

Tel.: + 972 2 298 6121 / 2

Fax: + 972 2 298 8161

Website : <http://www.tamerinst.org>

Facebook @TamerInstitute

البريد الإلكتروني: generaldirector@tamerinst.org